وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
Ministry of higher education and scientific research
جامعة الشهيد الشيخ العربي التبسي - تبسة
Echahid Cheikh Larbi Tebessi University- Tebessa
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
faculty of humanities and social sciences

قسم : الفلسفة

تخصص : فلسفة غربية حديثة ومعاصرة

مذكرة ماسترتحت عنوان

فكرة السيولة عند زيجمونت باومان

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر L.M.D

من إعداد الطلبة:

- لحمر نوال
- عويمر شهرازاد

إشراف الأستاذ(ة):

- مالك سماح

أعضاء لجنة المناقشة:

الاسم واللقب	الرتبة العلمية	الصفة
بن عزوز حاتم	محاضر - أ-	رئيسا
مالك سماح	محاضر - أ-	مشرفاومقررا
معط الله أحمد	محاضر - أ-	عضوا

السنة الجامعية 2022 / 2023

بسم الله الرحمن الرحيم

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
People's Democratic Republic OF Algeria
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
MINISTRY OF HIGHER EDUCATION AND SCIENTIFIC RESEARCH
جامعة العربي التبسي، تبسة
LARBI TEBESSI UNIVERSITY, TEBESSA

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
Faculty of Humanities and Social sciences

قســـــم الفلسفـــــة

إذن بإيداع مذكرة ماستر

أنا الممضي أسفله الأستاذ(ة): ...بالسماح... الرتبة ...أستاذ محاضر أ"

المشرف على مذكرة ماستر بعنوان: ...عمر خالسيولة عند سيمون دي بوفوار...

.....

والمكملة لنيل شهادة الماستر في تخصص: فلسفة غربية حديثة ومعاصرة بعنوان

السنة الجامعية: 2023/2022

من إعداد الطالب (ة)1 : ...نوال لعمر... رقم التسجيل ...210840166.27...

الطالب (ة) 2: ...عبد المنعم لمزاد... رقم التسجيل ...180740200881...

أصرح بأنني تابعت المذكرة عبر جلسات إشرافية خلال الموسم الجامعي 2023/2022، وأنها تتوفر على الشروط المنهجية والعلمية، الشكلية والموضوعية.

وبناءا عليه أسمح بإيداع المذكرة لدى أمانة القسم للمناقشة.

تبسة في : 2023.05.31

توقيع الأستاذ(ة) المشرف:

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
People's Democratic Republic OF Algeria
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
MINISTRY OF HIGHER EDUCATION AND SCIENTIFIC RESEARCH
جامعة العربي التبسي، تبسة
LARBI TEBESSI UNIVERSITY, TEBESSA
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
Faculty of Humanities and Social sciences
قسم الفلسفة

تصريح شرفي

بالالتزام بالأمانة العلمية لإنجاز البحوث

ملحق القرار رقم933المؤرخ في 2016/02/20

أنا الممضي أسفله:

الطالب(ة): لحمر نوال

صاحب(ة) بطاقة التعريف الوطنية أو رخصة سياقة رقم: 101593346

الصادرة بتاريخ: 2016/10/29 عن دائرة/بلدية: تبسة

المسجل في السنة الثانية ماستر تخصص: فلسفة غربية حديثة ومعاصرة

والمكلف بإنجاز مذكرة ماستر بعنوان: فكرة السيولة عند زيجمونت باومان

إشراف الأستاذ(ة): مالك عبد سلام

أصرح بشرفي أنني ألتزم بالتقيد بالمعايير العلمية والمنهجية والأخلاقية المطلوبة في انجاز البحوث الأكاديمية وفقا لما نص عليه القرار رقم 933المؤرخ في 2016/07/20المحدد للقواعد المتعلقة بالوقاية من السرقة العلمية ومكافحتها.

تبسة في: 2016/10/29

مصادقة البلدية

إمضاء المعني بالأمر

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
People's Democratic Republic OF Algeria
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
MINISTRY OF HIGHER EDUCATION AND SCIENTIFIC RESEARCH
جامعة العربي التبسي، تبسة
LARBI TEBESSI UNIVERSITY, TEBESSA
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
Faculty of Humanities and Social sciences

تصريـــح شـــرفي

بالالتزام بالأمانة العلمية لإنجاز البحوث

ملحق القرار رقم933المؤرخ في 2016/02/20

أنا الممضي أسفلـه:

الطالب(ة): عويمر سكوزاد ..... صاحب(ة) بطاقة التعريف

الوطنية أو رخصة سياقة رقم: 105213860 الصادرة بتاريخ: 2021/06/23 عن دائرة/بلدية:

بئر العاتر .....

المسجل في السنة الثانية ماستر تخصص: فلسفة غربية حديثة ومعاصرة.

والمكلف بإنجاز مذكرة ماستر بعنوان: .....

فكرة السيادة عند سيغموند فرويد .....

إشراف الأستاذ(ة): ....

أصرح بشرفي أنني ألتزم بالتقيد بالمعايير العلمية والمنهجية والأخلاقية المطلوبة في انجاز البحوث الأكاديمية وفقا لما نص عليه القرار رقم 933المؤرخ في 2016/07/20المحدد للقواعد المتعلقة بالوقاية من السرقة العلمية ومكافحتها.

التاريخ: 2023/05/30 .....

إمضاء المعني بالأمـــر

المصادقة على الامضاء
السيد: .....
لحضوره وتوقيعه امامنا
ببلدية بئر العاتر
بتاريخ: .....
2023 ماي 31

الملخص:

إن فكرة السيولة هي مخاض لمآلات الحداثة الغربية التي انحرفت عن مقوماتها الصلبة كالعقلانية والفردية والحرية وغيرها، معلنة بذلك على ظهوره مرحلة اخرى هي مرحلة السيولة المصطلح الذي يتخذ " زيجمونت باومان" بديلا عن المصطلح الأكثر شهرة "ما بعد الحداثة" وعليه تكون السيولة هي العلامة البارزة للوضع الراهن، كونها تسربت إلى كل مظاهر الحياة، وتعززت أكثر مع ظاهرة العولمة، وسيادة النموذج الاستهلاكي، وسيرورة النزعة الفردية وطغيان العقلانية الأداتية وكل هذا جعل الفرد المعاصر يلهث وراء قيم الإشباع الفوري وتحقيق اللذة الدائمة إذ ما ميز العالم السرعة والتبدل واللاثبات هذا الأمر جعل باومان ينظر لعالم إنساني يكتشف فيه الفرد ذاته ككائن واع يتعرف على وجوده بمعية الأخرين، بل إن وجوده لا يتحقق إلا بكونه وجودا من أجل الأخر، وهنا فقط يتجاوز السيولة ويعيش مع الأخر وفق قيم " المحبة " و "التعاون" و "التضامن"

الكلمات المفتاحية: السيولة، الحداثة، العقلانية، ما بعد الحداثة، الأداتية.

Abstract:

The concept of liquidity represents the repercussions of Western modernity, which has strayed from its solid foundations such as rationality, individualism, and freedom. This deviation has given rise to another phase known as liquidity, a term coined by Zygmunt Bauman as an alternative to the more popular term "postmodernity." Consequently, liquidity has become the prominent feature of the current state of affairs, infiltrating all aspects of life and becoming more pronounced with globalization, the dominance of consumerism, the prevalence of individualistic tendencies, and instrumental rationality. These factors have led modern individuals to relentlessly pursue immediate gratification and everlasting pleasure.

The modern world is characterized by speed, change, and instability, which have prompted Bauman to envision a human realm where individuals discover themselves as conscious beings who acknowledge their existence in relation to others. Their existence is only fulfilled through their coexistence with others. It is in this context that Bauman goes beyond liquidity and advocates for living with others based on values such as "love," "cooperation," and "solidarity".

Keywords: Liquidity , Modernity, Rationality, Postmodernity, Instrumentalism.

شكر وعرفان

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على نبينا محمد ﷺ أما بعد إعترافا لأهل الفضل بعد فضل الله عز وجل أنه لا يسعنا إلا أن نشكر أستاذتنا الفاضلة الدكتورة مالك سماح على إشرافها على هذه الرسالة والتي أعطتنا الكثير من وقتها وجهدها والكثير من صبرها و هدوءها في التعامل حيث كانت داعما معنويا منذ البدء في الدراسة إلى غاية إتمامها.

كما نتقدم بجزيل الشكر الى أساتذة قسم الفلسفة بجامعة تبسة كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية كل باسمه و مقامه.

الشكر لكل من ساعدنا في انجاز البحث من قريب و من بعيد.

إهداء

الحمد لله الذي وفقنا ويسر لنا طلب العلم

أهدي ثمرة هذا المجهود

إلى نبع الحنان ومصدر الأمان ...أمي الحبية

إلى قدوتي و نبراس الثقة والإعتزاز ... أبي الغالي

إلى سندي في الحياة و رفيق دربي ... زوجي عبد الحليم

إلى الشموع التي تنير حياتي أبنائي حفظهم الله ... براء، مسرة ، مسك .

إلى أخوتي خليل و شفيق و إلى أخواتي شهرة و ليلى

و إلى كل الأحبة و الأصدقاء.

نوال لحمر

إهداء

إلى ملهمي فلسفا أينما كنت وأينما حللت، أبي الروحي الذي جعلني أستوعب المفهوم والنسق الفلسفيين أستاذي : بالعالية دومة ميلود .

وإلى روح أستاذي محمد الصادق بلام (ألف رحمة عليه وطيب الله ثراه).

إلى كل من فكر في سعادتنا وحاولوا زرع البسمة على ثغورنا.

عويمر شهرازاد

مقدمة

المقدمة :

يرتبط ظهور الحداثة في العالم الغربي بالمد الطبيعي الذي دخلته أوروبا منذ العصور الوثنية، وصولا إلى العصور اللاحقة التي تزاحمت بكل أنواع المذاهب الفلسفية المتصارعة، ويعد العصر الوسيط الذي سادت فيه سيطرة الكنيسة تمهيدا لنشأة عصر جديد ظهرت فيه النزعة التنويرية المؤسسة للفكر الحداثي المناهض للسيطرة التقليدية القائمة على الأساس الديني الثيولوجي، من خلال إرساء دعائم جديدة مؤطرة لحركة التفكير ومنظمة لشؤون الواقع، وقد إختلف النقاد في تاريخ نشأة الحداثة ودلالتها و الموقف منها ولكنهم يجمعون على أن مصدرها غربي فغالبية الباحثين يرون أن بدايات الحداثة بدأت مع أواخر القرن السابع عشر على يد شعراء فرنسا " شارل بودلير " و" رامبو" وذلك مع بداية الرمزية ونهاية الرومانسية، فالحداثة هي الصورة التي يتجلى فيها حلم العالم الغربي في البحث عن عالم مثالي، و الإنسلاخ عن الكنيسة وسلطتها الروحية، فما لبث أن إنفجر العقل البشري معبرا عن محاولاته المتكررة بأن يكون سيدا للطبيعة و ممتلكها على حد تعبير الفيلسوف الفرنسي رونيه ديكارت و بذلك فقد دشن العقل الأنواري المشروع الحداثي وبنى سرحه الفلسفي الذي إستند إلى ترسانة من المقولات والقيم التي تحررت من شرنقة الماضي المستبد وتنصلت من قيود الميتافيزيقا، فهي تشكل بذلك منظومته الفكرية وتأسس لمعالم خطاب جديد يكون بمثابة الأرضية الصلبة التي يقف عليها الإنسان الحداثي، ولكن ما لبثت هذه المقولات أن إنحرفت عن مسارها وفقدت ثباتها وصلابتها في ظل سيادة السيولة، واتساع وتيرة الامتداد الإلكتروني و تفشي العقلانية الرقمية و سيادة منطق المتلازمة الإستهلاكية.

وذلك نتيجة لما يشهده العالم اليوم من موجة تغيير عصفت بالعالم بأسره وحلت بسائر الحقول الإنسانية، وبالتالي فهو منطق يقود العالم نحو مزيد من السرعة و السيولة وتبدل المستمر فالحديث عن هذه الأزمة في الوقت نفسه حديث عن الحقل الفكري الذي جعل

الفلاسفة يقيمون مشاريعا جديدة قصد الإنتقال من الفكر الحداثي الغير مكتمل إلى مشروع يمتلك أسّسا فكرية أكثر قدرة على تحقيق الأهداف المسطرة من قبل الحداثة التقليدية.

ولعل من بين الفلاسفة الذين أولو إهتماما بارزا بالفكر الحداثي نجد الفيلسوف وعالم الإجتماع البولندي زيجمونت باومان الذي أطلق على المرحلة الحداثية المعاصرة مصطلح "الحداثة السائلة" وهذا بسبب تصدع الآليات والمبادئ الحداثية التقليدية وعدم قدرتها على مسايرة العصر الراهن الذي عرف تطورا مذهلا أدى إلى تأكيد باومان على أن زمن الحداثة في سيولتها إنما هو بمثابة صيرورة مستمرة لزمن الحداثة في صلابتها.

والإشكال الذي يمكن طرحه وفق الحكم الذي إستخلصه باومان هو:

هل مقاربة باومان النقدية للحداثة الغربية هي مجرد نقد أم أنها خلاص من موجة السيولة؟

وتندرج تحت هذه الإشكالية مشكلات فرعية تتمثل فيما يلي : ما المقصود بالسيولة؟ وما علاقتها بالحداثة الغربية؟ ولماذا إنتهت قيم الحداثة إلى واقع إنساني أنطولوجي مأزوم؟ وما المخارج التي يراها باومان كفيلة لمواجهة موجة السيولة وسيادة معالم خطاب مشترك يكون أكثر ترحيبا بالكرامة الإنسانية ؟

وللإجابة عن هذه الإشكالية إرتأينا عرض بحثنا و تقسيمه وفق الخطة التالية:

في المقدمة مهدنا إلى موضوع بحثنا المتمثل في الفكر الحداثي وإنبثاق فكرة السيولة كما أشرنا إلى النموذج الفكري –زيجمونت باومان– من خلال طرح إشكالية البحث الأساسية و الإشكاليات الفرعية كماهي موضحة في متن البحث الذي قسمناه إلى ثلاثة فصول.

فالفصل الأول: قد عنوناه بمصطلح السيولة عند باومان لأبرزنا من خلاله الخلفية الفكرية له، و أيضا تطرقنا لفكرة السيولة من حيث إشكالية المفهوم وهويته مبرزين الجذور التاريخية لهذا المصطلح، أما الفصل الثاني: فقد عنوّناه بتمظهرات السيولة في فلسفة باومان متخذين الحداثة السائلة نموذجا وقد أبرزنا من خلاله تضارب مفهومي الحداثة الصلبة مع

الحداثة السائلة وقد تطرقنا إلى مقومات الحداثة الغربية فاتحين المجال لنقدها، وقد أوردنا في الفصل الثالث: القيمة الإبستيمولوجّية لفكرة السيولة لدى باومان مبرزين مقترحات لمفهوم السيولة ليتم من خلاله الخوض في بعض إسقاطات السيولة {الخوف، العنف، الحياة، الثقافة، الأخلاق} ثم تطرقنا إلى الحل الذي قدمه باومان للخروج من موجة السيولة و في نهاية المطاف تم وضع مشروع باومان في ميزان النقد.

وعلى سبيل التفصيل في هذه العناصر التي إنطوت عليها هذه الفصول إعتمدنا المنهج التحليلي الذي تقصينا من خلاله أفكار زيجمونت باومان حيث حاولنا فهم نصوصه وتحليلها وكذا موقفه من أهم القضايا التي أسست للحداثة الصلبة وكذلك عرض أهم أفكاره في الحداثة السائلة، كذلك إعتمدنا المنهج التاريخي الذي قمنا من خلاله بتقصي تاريخي حول صيرورة الحداثة و مآلاتها إضافة إلى الجذور التاريخية لفكرة السيولة إنطلاقا من هيروقليدس مرورا بهيجل وصولا إلى باومان أما في الأخير قدمنا حوصلة عرضنا فيها نتائج بحثنا والتي تنسجم مع منطوق التحليل و محاولة الإجابة عن أهم المشكلات المطروحة.

في حين ما يتعلق بالدراسات السابقة في موضوعنا فإنها قليلة تكاد تكون منعدمة بإستثناء مذكرة لنيل شهادة الدكتوراه الطور الثالث ل.م.د بعنوان: إشكالية القيم في فلسفة زيجمونت باومان عن قسم الفلسفة جامعة الجزائر2 أبو القاسم سعد الله

إعداد الباحثة رقية طيايرة والتي للأسف نوقشت 18 ماي 2023 مما تعذر علينا الحصول عليها.

حيث نهدف من خلال هذه الدراسة إلى محاولة إيضاح أفكار زيجمونت باومان وكذا موقفه من الحداثة محاولين معالجة الواقع الراهن المتأزم جراء ما خلفته تداعيات ومآلات الحداثة الغربية إنطلاقا مما قدمه باومان في مشروعه النقدي للفكر الحداثي و كذا الحلول التي يراها كفيلة للتخلص من خطر تيار السيولة الجارف.

أما ما يتعلق بالأسباب والدوافع التي ساهمت وبدرجة فاعلة في إختيارنا لهذا الموضوع هي كثيرة ومختلفة لكن يمكن تصنيفها إلى:

1) أسباب موضوعية: وتتمثل في أن موضوعنا بكر يخلو من الدراسات السابقة في مكتبتنا الخاصة هذا ما دفعنا للبحث فيه خاصة كون باومان مفكر معاصر وأفكاره يمكن إسقاطها على إشكاليات العصر وأزماته بغرض الكشف عن مفاسدها، كذلك موضوع الحداثة في تجدد و تمدد مستمر كل مرة يفرض رهانات ويطرح إشكاليات وأفكار يحتم على الفكر الفلسفي الخوض فيها وهذا هو روح الفلسفة وماهيتها كونها أسلوب يطرح الإشكاليات المؤرقة للعقل البشري عبر الزمان والمكان خصوصا العصر الراهن أو السائل الذي أصبح الإنسان فيه في حيرة من أمره باحثا عن حلول تخلصه من خطر السيولة ، فعالم السيولة هو عالم اللذة و الإشباع و السعادة الأنية، فلا شيء فيه ثابت مستقر بل كل شيء ينحو نحو السرعة واللاثبات وهذا ما إنعكس سلبا على نفسية الإنسان المعاصر فهو يعيش هاجس الخوف والقلق المزمن واللايقين الدائم.

2) أسباب ذاتية : يمكن إجازها في عاملين هما:

أولا : إهتمامنا العميق بالموضوعات المعاصرة ذات الصلة بمسألة الحداثة وتحولاتها من عصر إلى أخر، وما صاحبها من أزمات وإختلالات مست صميم الإنسان في ذاته ومحيطه وما المفاسد والأزمات التي نعيشها اليوم إلا شاهدة على إنحراف الحداثة عن مقاصدها فاتحة المجال لأزمة السيولة.

ثانيا: إهتمامنا لفكر باومان كواحد من المفكرين الذين سعوا إلى تشخيص بعض جوانب الداء في الحداثة و وصف الدواء.

أما إرتبط بالصعوبات التي واجهتنا في البحث تمثلت في ضيق الوقت خاصة وأننا مرتبطين بإلتزامات العمل وبإعتبار أن الموضوع متشعب لابد من الوقت الكافي من أجل

الإلمام به و محاولة فهمه كون موضوع الفكر الحداثي واسع لا يمكن الإحاطة به وإستعابه في مدة وجيزة.

كذلك قلة الدراسات التي أنجزت حول فكر باومان ومنه عدم تمكننا من إجاد المراجع الكافية التي تعيننا على إنجاز العمل، وكذلك كوننا مبتدئين فإننا لم نتمرس بالقدر الكافي على آليات الإشتغال على الموضوعات المتشبعة التي هي في حال من الترحال الدائم والتغير المستمر كموضوع السيولة، لكن رغم هذه الصعوبات إلا أننا بعون الله وتوفيقه عملنا بكل جد وإجتهاد على إنجاز هذا العمل الذي نأمل أن يكون معتبرا وجديرا بالمناقشة والإثراء و منه يكون كإضافة يتم من خلالها الكشف نوعا ما عن جانب من جوانب الفكر الباوماني.

الفصل الأول: مصطلح السيولة عند زيجمونت باومان.

1- الخلفية الفكرية لباومان.

1-1- حياته و أهم مؤلفاته.

1-2- فلسفته.

2- إشكالية المفهوم وهويته.

2-1- الجذور التاريخية لمصطلح السيولة.

2-2- مفهوم السيولة.

1- الخلفية الفكرية لباومان.

يعتبر زيجمونت باومان من أبرز المفكرين المعاصرين الذين إشتغلوا على موضوع الإنسان بالدريجة الأولى وما يتعلق به، لذلك أولى إهتماماً كبيراً بالعالم الإجتماعي المحيط به، وبالأسئلة العامة المرتبطة بالحياة البشرية، لذلك عمد على دراسة حال الإنسان وبيان إنشغالاته، من مرحلة الحداثة الصلبة إلى مرحلة الحداثة السائلة، وهذا الإنتقال الواضح في متون النصوص الباومانية، إنما يرجع في الأصل الى ما طرأ عليه من تغييرات، وما تعرض له أثناء مسار حياته.

ومن هنا يمكننا التساؤل:

هل لسيرة باومان الذاتية دور في تشكل أفكاره؟ وفيما تتمثل الخلفية الفكرية التي إعتمد عليها في بناء مشروعه الفكري؟ ماذا نقصد بالسيولة؟ وهل هي مصطلح جديد ينفرد به باومان أم له جذور تاريخية أسهمت في تشكله؟

1-1- حياته و أهم مؤلفاته

أ. حياته

زيجمونت باومان Zygmunt Bauman فيلسوف وعالم إجتماع بولندي ولد في 19نوفمبر 1925 في بوزنان ببولندا، من أبوين بولنديين يهوديين[1]، انتقل إلى الاتحاد السوفياتي عند بداية الحرب العالمية الثانية وعمره اربعة عشرة عاما وعندما بلغ الثامنة عشرة حارب في صفوف الفرقة البولندية في الجيش الأحمر ضد جيش هتلر، وبعد عودته إلى بولندا بعد الحرب، عمل باومان ضابطا سياسيا في الجيش البولندي خلال أواخر الاربعينيات وأواخر الخمسينيات، وفي عام 1948 تزوج جانينا لوينسون

[1]- نهى محمد أحمد السيد : **سوسيولوجيا ما بعد الحداثة** -زيمونت باومان-، مجلة البحث العلمي في الآداب والعلوم الإجتماعية والإنسانية، ج4، العدد 21، 2020، ص85.

Jannina Leuinnson[1] وقد اختبر اختبر زيجمونت باومان رعب الحرب، وعاش تجربة المنفى المؤلمة هذه التجارب جعلته نصيرا للمستضعفين و ناقدا لاذعا للأوضاع الراهنة اشتغل باومان في المخابرات العسكرية البولندية كمدرس في العلوم السياسية و خلال تلك الفترة(1939-1953) درس السوسيولوجيا أكاديمية وارسو في بولندا[2] على يد كبار السوسيولوجيين البولنديين أمثال ستينساو أوسوساكي وجوليان هوتشفيلد غير أنه سيغادر قسم السيسيولجيا نحو قسم الفلسفة، بسبب خطر علم الإجتماع في بولندا بحجته أنه علم إجتماع برجوازي، وفي عام 1954 عمل محاضرا في جامعة وارسو، ثم أصبح أستاذا بروفيسورا في عام 1964 حيث استقر فيها الى عام 1968، اين طرد رفقة عائلته في نفس السنة بعد شن الحزب الشيوعي حملة اتهامات لمعاداة السامية، وبذلك توجه إلى إسرائيل

أين اشتغل كأستاذ محاضر في عدة جامعات بها حتى عام 1971 وبعدها غادرها أول ما جاءه عرض للتدريس بجامعة ليدز ببريطانيا، لأن باومان أيقن حقيقة كونه ضحية دولة قومية عضوية (وهي بولندا) وبالتالي لم يشأ أن يقترف جرم القوميين في دولة قومية عضوية عنصرية (وهي إسرائيل)، وهذا ما صرحت وأفصحت عنه زوجته جانينا لوينسون Jannina Leuinson كانت اسرائيل تحكمها العصبية القومية، وها نحن فررنا للتو من القومية البولندية ولذا لم نرضى أن نتحول من ضحايا دولة قومية إلى من يقترف الجرم ذاته (بحق الفلسطينين) في دولة قومية أخرى ولم يتردد باومان في الرحيل إلى بريطانيا فور تلقيه عرضا للتدريس بجامعة ليدز وهناك تشكلت معالم مشروعه النقدي للحداثة الغربية ونزعتها القومية

---

[1]- سكوت جون: **المنظرون المعاصرون**، تر: محمود محمد حلمي، مراجعة جبور سمعان، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط1،2009، ص 54.

[2]- زيجمونت باومان : **من الحداثة الصلبة الى الحداثة السائلة**، تر : العلوي رشيد ، تم استرجاعها في تاريخ 2020/4/4 من الموقع الالكتروني https//aawsot.com/home/article

العنصرية[1]، كما شغل استاذا منذ 1971 في قسم علم الاجتماع و أصبح فيما بعد رئيسا للقسم ومنذ ذلك الوقت كانت كتب باومان تنتشر باللغة الانجليزية على وجه الحصر، عد منذ العقد التاسع من القرن الماضي، احد ابرز اوجه حركة مناهضة العولمة النيوليبيرالية[2] بعد وفاة زوجته جانينا عام 2009 أعاد الزواج من الباحثة في علم الإجتماع الايتام "الكسندرا حاسينكا") وعاشت معه وبناته الثلاث و أحفاده حتى وافته المنية في 2017 بمدينة ليدز عن عمر يناهز 91 سنة .

ب. أهم مؤلفاته

له عدة مؤلفات منها "الحداثة والمحرقة" (1989)، والحداثة السائلة (2000) وشملت منشوراته البارزة الأخرى الثقافة مثل براكسيس (1973)، الحداثة والتضارب(1991)، ما بعد الحداثة وسخطها (1998) العولمة: العواقب البشرية"(1998)، "المجتمع الفردي"(2001) حياة مهدرة: الحداثة ونبذها(2003)، الغرباء عند بابنا (2016)، روتروبيا زيجمونت باومان (2019)، أطفال المجتمع السائل (2018)، الحب السائل ، اشتري حياة (2008).

ألف باومان موسوعة السوائل ونظم مجموعة كتب: الحداثة السائلة، الخوف السائل الحب السائل، الأزمنة السائلة، المراقبة السائلة، الثقافة السائلة، الشر السائل، وكلها كتب تقدم نموذجا تفسيري للزمن المتغير وهم التحول العظيم في الحياة الانسانية، تحول مفزع وضع انساني مختلف يعكس مأساة الحداثة و زوال كل ما هو صلب ويقيني وثابت، ويعد باومان من ابرز اوجه الحركة المناهضة للعولمة النيوليبرالية، وعمل باومان على محاولة اذابة الكيانات الثابتة وتقييمها من داخل الحداثة وهو ما سيشار له لاحقاً في هذا المقال.

[1]– زيجمونت باومان : **الحداثة و الهولوكوست**، تر حجاج ابو جبر، القاهرة ، صدارات للابحاث و النشر، ط1، 2014، ص35.

[2]– العلوي رشيد https:/aawsat.com/home/article .

كفيلسوف ماركسي بارنر في النصف الثاني منذ القرن العشرين وينتسب الى المدرسة النقدية والتجديدية متأثر بجورج زيمل وانطونيو غرامشي، وروبرت كاستل، وبيير كورديو[1].

[1] – محمد همام: **الحاثة والخوف وكورونا**، مركز النهوض للبحث والدراسات ، جامعة ابن زهر ، المغرب ، 2020، ص 4.

1-2- فلسفته:

زيجمونت باومان هو أول من نحت مصطلح الحداثة السائلة وهو واحد من رواد مابعد الحداثة، أفكاره لا تخرج عن العقل السيسيولوجي، وهذا ما يجعل تحليلاته ذات طابع استثنائي تميزه عن باقي علماء الاجتماع، لأنه يتميز بنوع من الانضباط في التفكير العلمي الذي لا يقبل الأفكار المنبثقة التي يصدرها بعض المفكرين أو عامة الناس، فهو دائما ما يدافع عن مهام السيسيولوجيا قصد التصدي للمفاهيم التي تغالط الناس، و تعمل على تشويه الواقع الاجتماعي، وعلى عكس العديد من علماء الاجتماع البارزين، فإن باومان لم يبين نظرية شاملة خاصة به على الرغم من ان هناك من الباحثين من يعتبر بأن باومان "بنى ما بعد الحداثة"[1] كما انه لم يسع الى تقديم أو نحت مفاهيم نظرية أساسية في تحليلاته مثل مفاهيم: التاريخاتية، الحركة الاجتماعية، الذات الفاعلة التي تشكل العمود الفقري لعلم الاجتماع عند آلان تورينAlain Touraine ، ومع ذلك كان من السمات الأساسية لسوسيولوجيا باومان أنه يؤكد في أكثر من مرة على ضرورة النظر في المفردات والمفاهيم السوسيولوجية التقليدية من خلال انتقاد الافتراضات القائمة حول الواقع الاجتماعي ، فعلى مستوى المفاهيم والأساليب المنهجية لقول باومان" نحتاج المفاهيم لنستوعب اهداف المعرفة، بينما نحتاج الأساليب المنهجية لتجعلها قابلة للاستيعاب، و نتعامل مع المفاهيم والأساليب المنهجية ونحن نتشق طريقنا باجتهاد ومعاناة من خلال سلسلة لا نهاية لها من المحاولة و الخطأ، لكي نحكم قبضتنا بشق الأنفس على الوقائع الغامضة و المتقلبة[2]

وبالنسبة إلى الأسئلة التي سعى باومان للاجابة عنها في مختلف مؤلفات السوسيولوجية، فهي التي ترتبط أساسا بالتطورات الاجتماعية خاصة تلك المتعلقة بالأخلاق والمعاناة التي يعيشها الفرد والمجتمع ،فهو يركز بشكل عام على الشواغل الانسانية اليومية

[1]- زيجمونت باومان وآخرون : **مستقبل النظرية الاجتماعية**، ترجمة سيري عبد الحميد رسلان، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط 1، 2014 ص ص 45،46.

[2] - المصدر نفسه، ص 54.

المرتبطة بالأفراد والمحبة و الحزن و الذاكرة و الفرح التي لها علاقة بالحياة اليومية وعند أهم الأشياء التي اهتم بها باومان في تحليلاته السوسيولوجية هو قلق من "العواقب البشرية" لتطورات الاجتماعية ، إذ أنه لا يهتم بالعمليات الاجتماعية المجردة فهو يهتم بالتداعيات الملموسة التي لا ترحم أولئك الذين تتأثر حياتهم أكثر من غيرهم بالتحولات الاجتماعية وتعمل على استبعادهم وتهميشهم ، وهذا ماجعله يهتم طوال حياته الأكادمية بموضوعين اساسيين وهما الطبقة العاملة باعتبارها تجسيدا للمعاناة والآخر هو موضوع الثقافة[1] ويعد باومان من بين علماء الاجتماع الذين لهم معرفة ودراية كبيرة باشكالية الحداثة وأبعادها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والاخلاقية ، فمن وجهة نظر دينيس سميت Dennis Smith يعتبر باومان "فيلسوفا اجتماعيا وعلى دراية جيدة بفلسفة: هيغل ، هوسرل، هادغر" فيدجنشتاين وغيرهم ، أكثر من ذلك انه كان اشتراكيا في معظم حياته حيث كتبت زوجته أنه لا يزال اشتراكيا صادق... عميقا في قلبه، و يحافظ على التزام قوي جدا بالمساواة والحرية والعدالة، على الرغم من أنه يفضل الآن وصفها بأنها قيم غربية وتنويرية "[2] كما أن الحديث عن ظاهرة الحداثة و ما بعد الحداثة تدفع كل باحث في الاجتماع مهتم أن يستحضر بالضرورة الأفكار والتحليلات النظرية التي عمل عليها باومان الى جانب كل من انتوني غيدنز والان تورين .

إن باومان بلا شك من السوسيولوجين الموسوعين بامتياز في مجال العلوم الانسانية ، حيث أن " جزءا من قوة تحليلاته تعتمد على الروايات و القصص التاريخية "[3] وذلك لانه دائما ما يبحث عن طرق جديدة لتفسير التحولات الإجتماعية والإقتصادية والأخلاقية التي تعرفها المجتمعات المعاصرة ، فهو غير ملتزم بمدرسة فكرية واحدة في تحليلاته حيث يقول:" كنت اسعى للحصول على إجابة على نفس الأسئلة طوال الوقت ، و أن لم أجد ذلك

---

[1] – Zygmunt Baumon : **Intimations of Postmodernity** ، London ، Routledge ، (1992)، p 206

[2] -Dennis Smith : Zygmunt Bauman : **prophet of postmodernity** ، Polity Press (1999) ،p 96

[3] – زيجمونت باومان و آخرون: **مستقبل النظرية الاجتماعية** ، مصدر سابق ، ص 54 .

انتقلت إلى مكان آخر، و لكن أخذت الأسئلة معي "[1] و هنا نجد أن أسلوب باومان دائما ما يتميز بطرقه للأبواب المختلفة من أجل فهم الدور الذي تلعبه الحداثة في الحياة المعاصرة، وهذا متجسد في أعماله المتعددة حول الهولوكوست والحرية والعولمة والطبقة العاملة والحب

والجنس والهجرة، فكل كل هذه الأبواب التي يطرقها تؤدي الى نفس الغرفة في فهم الواقع الاجتماعي من منظوره الخاص .

كما يمكن الحديث عن التقاطع المعرفي.. عند زيجمونت باومان – كعملية جمع بين تخصصين فما أكثر على الأقل و إيجاد جسور التواصل فيما بينهم من أدوات ووسائل التحليل إزاء مشكلة معينة–حيث استعمل هذه الطريقة ليقدم تصورات ومفاهيم جديدة، وكذلك من بين الذين طرقوا باب التخصصات الأخرى حتى يقدم معاني و مفاهيم تتضمن بدورها الشراكة بين العديد التخصصات، ولتحديد ذلك سنتناول المرجعيات المختلفة لباومان فعندما نبحث فيما كتبه يصادفنا تنوع وتعدد في العلوم، فتارة يجعلك وكأنك امام محلل وخبير اقتصادي ، ثم تنتقل إلى محلل سياسي للأوضاع ، وبعدها نجد التأصيل التاريخي للأحداث ونخص بالذكر حادثة الهولوكوست ، ثم الاستعانة بمفاهيم فيزيائية وتوظيفها للحصول على معنى ملائم مثل مفهوم السيولة وفي النهاية يقدم كل هذا في إطار وصف اجتماعي، أي أنه متعدد المرجعيات، فهو كان من المناهضين لسياسة الانفراد بالتخصص والتوغل فيه دون الاطلاع على هذا التخصص من تقاطعات ضرورية مع التخصصات الاخرى، وهنا نستحضر مقولة إدغار موران:" ان العلوم أغلقت على نفسها و أصبح كل تخصص متلهفا لتغيير نفسه عن الأخر، و أصبحت التخصصات مغلقة لاتتواصل مع بعضها البعض وهذا من التناقض، لأن لها نقاط مشتركة تجعلها من المفروض تخاطب بعضها البعض"[2] وهذا

[1] –Zygmunt Bauman : Intimations of postmodernity ،p 207

[2] –Morin ، e . l'ancienne et la nouvelle transdisciplinarité ، collection points ، 1er edition ، paris ، 1982. p 122.

يعني أن الانفرادية بالتخصص لا تجدي نفعا بل لابد من مشاركة التخصصات بعضها البعض، اي ان عام الاجتماع سينمو يتطور ويزدهر عندما تنزله من البانوبتيكون الذي تحدث عنه باومان أي من السجن الانفرادي (التخصص) الى الساحة المشتركة للعلوم أين يجد نفسه مع باقي التخصصات[1] ليحمل عمل باومان تشخيص لعصرنا دون السماح لنفسه بالوقوع في أطر نظرية ، وذلك من خلال تنويع زوايا التفسير، والانخراط في حوار مستمر مع العديد من المؤلفين من(كامو camus إلى ليفانسLevinas)، من (غرامشي إلى أرندت :Arendt) إن تمكن باومان من تبني تعقيد الظواهر الاجتماعية من خلال تغطية مجالات مسبقة للتفكير وهي مجالات تبدو متجانسة

من التشكيك في وقع المحرقة في تاريخ الحداثة الصناعية الى ظهور الاستهلاكية في مجتمعاتنا التي اصبحت سائلة[2] ومع ذلك أنه تمكن من تبسيط الظواهر الاجتماعية المعقدة التي كانت تبدو غريبة واستطاع أن يقدم لها تفسيرات نابعة من تعدده المعرفي وتنوعه في المجالات وعلى سبيل المثال "حادثة الهولوكوست" التي كانت تتناول فقط من جانب

تاريخي معروف باسم المحرقة ، لكن الحداثة عنده أكثر من ذلك فليست مجرد حدث تاريخي عابر، بل تعتبر تجسيداً لمرحلة الحداثة و بالتالي فقد أعطى للحدث التاريخي بعدا فلسفيا و تقنيا، بمعنى انه يرفض التصور التقليدي لعلم الاجتماع المبني على الانفرادية في التخصص، و الاستغراق في حدوده، بل لابد من تجاوز حدود علمه الى علوم أخرى تخدمه، و لا عجب أن نجد باومان ممن يطلبون ذلك لأن المرحلة الزمانية كانت مليئة بالدراسات التي تصب في منحنى التقاطع المعرفي، فهو معاصر لإدغار موران، وهو مطلع لما قدمه فوكو و ميشال سار: بل إنه قد تأثر بالفكر الاينيوني و ما حمله من نتائج: لذلك

[1]– زيجمونت باومان : **الخوف السائل** ، تر حجاج أبوجبر ، الشبكة العربية للأبحاث والنشر،ط1، بيروت ، 2018، ص 12.

[2] - Fronceculture . Fr . Nous vivons dans une société liquide ، linstitut Français De la Mode ،la date : 25/04/2020 . : https://www.franceculture.Fr/conferences/nous-Vivons-dans-une-societe.liquide.

تميزت كتاباته بفسيفساء معرفية، فعند كل تخصص معرفة يقدمها للقارئ و يجعله متنقلا من علم لآخر[1]

[1] theguardian ، Zygmunt Bauman obituary . Mark Davis and tom compbell la date : 25/04/2020.
https://www.theguardian.com/education/2017/jan/15/Zygmunt-bauman-obituary.

2- السيولة إشكالية المفهوم و هويته

2-1- الجذور التاريخية لمصطلح السيولة

إن أنماط الحياة الحديثة الحالية تتشابه في طبيعتها الهشة العابرة، و قابليتها للتغيير الدائم و من ثم فإن باومان يقترب من الحداثة في صورتها الحياتية، التي تعبر عن عالم السيلان المستمر و الصيرورة الدائمة، إلا أن باومان لم يكن أول من قال بالسيولة، فمن المعروف أن الفكرة الرئيسية في فلسفة الفيلسوف اليوناني "هيراقليطس Heraclitus " (5.ق.م) القول بالسلان وهو الايمان بالتغيير كقانون ثابت للوجود بأسره. وكغيره من الفلاسفة اليونان الأوائل طرح هيراقليطس عدة أسئلة: ما أصل الأشياء جميعا؟ هل الوجود ثابت أم متغير؟ هل العالم تحكمه الوحدة أم الكثرة؟ ليكون بذلك من الفلاسفة الأوائل الذين أثاروا قضية التغيير والحركة الدائمة في العالم، وأكد أن الجوهر الأساسي للأشياء هي النار، وانطلاقا من فكرة التغيير حاول هيراقليطس أن يوجه انتقاداته لكل الأفكار التي تقر بالثبات، فالوجود عند هيراقليطس دائم السيلان على حد تعبيره، فالشيء الواحد يتحول إلى شيء آخر، بل أيضا هذا الشيء الواحد لا يستقر لحظة واحدة و انما هو ينقلب دائما وباستمرار من حال إلى حال[1] إنه فيلسوف الصيرورة التي تعني انتقال الشيء من حالة إلى حالة أخرى، أو من زمان إلى زمان و هي مرادفة للحركة و التغيير من جهة كونهما انتقالا من حالة إلى أخرى، و الشيء المتصف بالصيرورة تفيض الشيء المتصف بالثبوت والسكون، و الصيرورة عند هيراقليدس صراع بين أضداد[2]

و هذا فإن هيراقليطس يؤكد على تغير الوجود و أن التغير يرتبط بمفهوم فالجوهر الأساسي الذي يقوم عليه الوجود هو الحركة و التغير الدائم، و هذا التغير و الحركة الجريان صراع بين الأضداد، فالأشياء كلها تنتقل من ضدّ إلى آخر فالخير والشر والليل و النهار والحرارة والبرودة حتى في انتقال الإنسان من مرحلة لأخرى و بين الحياة و الموت فلولا

[1]- عبد الرحمن بدوي: **ربيع الفكر اليوناني**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط3، (دت)، ص 138.

[2]- جميل صليبا: **المعجم الفلسفي**، ج1 ،دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1982 ، ص748.

"التغّير" لم يكن شيء. فإنَّ الاستقرار موت و عدم والتغير صراع بين الأضداد ليحل بعضها محلّ بعض و الشقاق أبو الأشياء و ملكها ، لولا المرض لما اشتهينا الصحة و لولا العمل لما نعمنا بالراحة و لولا الخطر لما كانت الشجاعة و لولا الشر لما كان الخير... نحن ننزل النهر و لا ننزل (من حيث أن مياهه تتجدد بلا انقطاع) ونحن موجودون و غير موجودين (من حيث أن الفناء يدب فينا في كل لحظة)، فكل شيء هو كذا وليس كذا موجود وغير موجود [1]

وهذا يعني أن الوجود دائما متغّير وباستمرار وهو لا يعرف الثبات والاستقرار، فلا شيء يبقى كما هو فالثبات يحيل إلى الموت، و التغّير هو جوهر وأساس الحياة ولعل ما يؤكد ذلك ما جاء في شذراته:

"فالنار تحيا بموت الأرض، والهواء يحيا بموت النار والنار تحيا بموت الهواء والأرض تحيا بموت الماء، والأشياء الباردة تصير حارة، والحارة تصير باردة و يجف الرطب ويصبح الجاف رطبا ، وعلى ذلك "لا يمكنك أن تنزل مرتين في النهر نفسه لأن مياها جديدة تغمرك باستمرار يجهل الناس كيف يكون الشيء مختلفا و متفقا مع نفسه، فالائتلاف harmonia يقوم على الشد والجذب بين الأضداد كالحال في القوس والقيثارة " (51-45)، والضد هو الخير لنا[2].

يمكن أن نلتمس من خلال هذه الشذرات أنَّ "الأشياء المتقابلة أو المتضادة هي التي ينشأ عنها الوجود، و هكذا يلاحظ أنَّ مصدر الوجود هو مبدأ النزاع، إلا أنه يوجد إلى جانب مبدأ النزاع هذا مبدأ الانسجام، فإنَّ الأشياء لا تستمر في هذا النزاع بل تعود إلى شيء من الوحدة... إذا ، يهيمن على . الأشياء مبدأ واحدا يجعلها تتغير باستمرار، و تبعا لهذا المبدأ

[1]- يوسف كرم: **تاريخ الفلسفة اليونانية**، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، 1936، ص20

[2]- هيراقليطس: **شذرات هيراقليطس**، تر : أحمد فؤاد الأهواني، فجر الفلسفة ليونانية قبل سقراط، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت ط1، ص ص105، 107.

أو القانون تتحول الأشياء بعضها إلى بعض عن طريق هذا السيلان الدائم، و هذا المبدأ يسميه هيراقليطس باسم القانون أو باسم النسب المستمرة الثابتة أو باسم اللوغوس[1]."

من خلال هذا يمكن القول أن هيراقليطس قد اهتم بدراسة مبحث التناقض فاعتبره القانون العام و الأول الذي يحرك الوجود، فأصل العالم في نظره مركب من الأضداد فكل شيء هو موجود و غير موجود ليكون محل اهتمام و تقدير في العصور اللاحقة و يتجلى ذلك في اهتمام الذي خطي به خاصة في العصر الحديث "لأنه أول من أكد حقيقة الصراع و التغيير في الوجود و أول من عارض منطق الثبات الصوري لمنطق حركي ديالكتيكي مطابق لحركة الواقع، فالمنطق الصوري يؤكد عدم التناقض و يرى أن الشيء إما (س) أولا (س) ولكنه الواقع في منطق هيراقليطس يحتمل الضدين معا فهو (س) و لا (س) في وقت واحد[2]

و من تجليات حضور هيراقليطس و استمرار القول بالصيرورة و التغيير في العصر الحديث نجد الفيلسوف "كارل ماركس (Karl Marx) الذي تحدث بكل وضوح عن التناقض الجدلي، ثم نقله إلى التاريخ و تمكن من ان يراه ويصوره بكل براعة في المجتمع (تناقض اجتماعي) وهاتان الحركتان المتناقضتان هما حركة علمية موضوعية جدلية تقوم على استقراء الواقع الملموس بشكل علمي يهدف إلى فهم و تفسير العالم، وحركة تخيلية تصويرية تقوم على محاولة توقع المستقبل، وهذا التناقض هو نوع من التغيير في عقل ماركس منذ مرحلة مبكرة – إنه أيضا فيلسوف صيرورة الواقع وتعقيداته و وعي بمختلف تناقضاته ومكوناته ومن آلياته الجدل المادي الذي يلعب دور المرشد في عملية البحث في الواقع للوعي بصيرورته الواقعية.

[1]– عبد الرحمن بدوي: **ربيع الفكر اليوناني**، مرجع سابق ، ص 140.

[2]– فريدريك نيتشه: **الفلسفة في العصر المأساوي الاغريقي**، ت ر سهيل القش، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط2، 1983، ص 44.

اما هيجل فتحدث في فلسفة عن صيرورة ذهنية ، ففلسفته و نسقه المنطقي لا يمكن أن يتأسس من دون الاعتماد على مبادئ فلسفة هيراقليطس (اللوغوس، الجدل، الصيرورة وحدة الاضداد) ، كما ان نيتشه اهتم باعادة بعث فلسفة هيراقليطس في كتابه " الفلسفة في العصر المأساوي الاغريقي" الذي تحدث فيه عند التهميش الذي طال فلسفة هيراقليطس بقوله: " من المؤسف ألّا بيقى لدينا من نتاج معلمي الفلاسفة الأوائل الا القليل، وأن يكون كل انتاجهم قد افلت من أيدينا وبسبب هذه الخسارة فإننا نحكم عليهم لا إراديا انطلاق من مقاييس خاطئة ... ولكنه مصير سيئ النية على أي حال اذا كان يحرمنا من هيراقليطس... يبدو أننا فقدنا من الفلسفة اليونانية قسمها الأكثر عظمة" [1]

و عن فكرة الصيرورة يعتقد نيتشه أن هيراقليطس قد استقاها من الواقع الاغريقي ذاته كما يرتبط بالبدنية اليونانية، ففكرة الصراع نابعة من ملاعب الرياضة البدنية التي يسود فيها الصراع و المنافسة و المبارزة كل أشكال الحركة، كما يرتبط بالصراعات بين الاحزاب السياسية و المناظرات السياسية التي لعبت دورا كبيرا في تطور فكرة الصراع.[2]

إن" نيتشه لا يتوانى في تقدير فلسفة هيراقليطس من بين كل الفلسفات سواء في الأزمنة القديمة أو الحديثة و حتى المعاصرة، ذلك أن فلسفة الصيرورة تعتبر من أكثر الفلسفات شمولية، لأن هذا المفهوم أو هذه الكلمة تحمل لنا في داخلها نظرة فلسفية لطبيعة الوجود و حقيقة نظامه" ، من هذا يمكن أن نستحضر عبارته الشهيرة (لا يمكن أن نسبح في النهر مرتين) ، إن العالم الذي نعيش فيه هو عالم الصيرورة و التحول و التغيير، هذه الفكرة نجد لها امتدادها عند هنري برغسون (1859-1941) في كلامه عن الديمومة [3] فالحياة تيار يجري و مجهود خلاق ذو طبيعة ديناميكية.

---

[1]- المرجع نفسه ص 44.

[2]- المرجع نفسه ص 57 .

[3]-لحسن لحمادي: هيراقليطس (الحكيم الأفزي) بعيون نيتشه 25/06/2015 ، الحوار المتمدن.

www.m.ahewar.org

و متطورة تتجلى في تغير و تطور الأنواع و تجددها، و منه فالحياة هي قوة أو دافع وحيد و منبع للحرية، للإبداع بصفة عامة، تأتي من مبدأ بسيكولوجي، و تُظهر درجة من الوعي و الديمومة المحضة[1].

كذلك نجد هيدجر من بين الفلافسة المعاصرين الذين طالبوا بالعودة إلى التراث اليوناني والتواصل معه، و قد اهتم هيدجر بالعودة إلى أتكسماندرس و بارمنيدس و أفلاطون وأرسطو، ولكن مرجعيته الأساسية كانت هيراقليطس، و هذا فإن العودة إلى الفلسفة ما قبل السقراطية بالنسبة لهيدغر و تأويل أفكارهم تتيح إمكانية الانخراط في الحاضر، و متابعة تحولات الراهن[2] ، كما يرى هيدغر أن هيراقليطس يوصف «بالمظلم غير أنه هو المنير،ذلك أنه ينطق عن المنير عندما يحاول الإهابة بظهوره وتجلّيه في لغة الفكر، إن المنير لَيبقى، بقدر ما ينير، ونحن نِسيّمنوره الإنارة، وعلينا أن نتفكّر فيما يتّصل بها وينتمي إليها، ... إنّ كلمة المنير تدل على ما يُضيء ويشعُّ ويسطع[3]

و من وجهة نظر جيل دولوز فإنَّ هيراقليطس " هو ذلك الذي يرى الحياة بريئة و عادلة بصورة جدرية، إنه يفهم الوجود انطلاقا من غريزة لعب و يجعل من الوجود ظاهرة جمالية لا ظاهرة أخلاقية ودينية "[4] ويضيف كذلك قائلا "لقد نظر هيراقليطس بعمق، فلم يرى أي عقاب للمتعدد أي تكفير عن الصيرورة، أي ذنب للوجود لم يجد أي شيء سلبي في

[1]– توفيق الشريف: **برغسون و فلسفة الحياة**، المنشورات للانتاج و التوزيع، تونس،1993، ص 51.

[2]– صاري رشيدة: **اللوجوس من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة المعاصرة**، هيراقليطس، هيدغر أنموذجين، رسالة دكتوراه جامعة وهران 2، 2015، ص 263، 264.

[3] – مارتن هيدجر : **نداء الحقيقة**، تر: عبد القادر مكاوي، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1977، ص364 .

[4] – جيل دولوز: **نيتشه و الفلسفة**، تر: أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط 1، 1993، ص 33.

الصيرورة"[1]، فقد يحدث أن لا شيء يتغير في التاريخ كما قد يبدو ذلك، لكن كل شيء يتغير في الحدث ونتغير نحن في الحدث " [2]

[1]– المرجع نفسه: ص 34

[2]– جيل دولوز، فليكس غتاري : **ما هي الفلسفة**، ترجمة مطاع ،صفدي، مركز الإنماء القومي، بيروت، لبنان، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1997، ص 123.

2-2- مفهوم السيولة

إن مفهوم السيولة يعد تجسيدا للتقاطع المعرفي عند باومان، و قد اختاره كي يعبر عن حالنا المعاصر، و السيولة باعتبارها مصطلحا له تداولاته المتعددة، و لكن انتقاءه من طرف باومان دليل على أنه متقاطع معرفياً ،فليس من السهل أخذ حالة فيزيائية للمادة و جعلها ميزة لنظام المجتمع الحالي، فباومان استعار المفهوم من الفيزياء، فالسيولة من المنظور العلمي (الفيزياء) مأخوذة من سائل liquid أي طور المادة الذي تكاد تنعدم فيه انضغاطاتها، و في هذا الطور تكون المادة في حالة مائعة، و يطلق المصطلح عادة على التحويل من الحالة الغازية إلى الحالة السائلة و خاصة بالنسبة للمواد التي توجد في حالتها الغازية عند درجة الحرارة و الضغط العاديين، كما نجد في الفيزياء أيضا ما يعرف بخط الإسالة liquidus المكونة من عنصرين ، الاول يعرف بالمنحنى الطوري phase diagram الذي يبين درجة الحرارة التي يتم عندها الانصهار كلما ارتفع تركيز المذاب في المذيب[1].

كما استعار هذا المفهوم من الاقتصاد و جسده في حال المجتمعات، فالسيولة في الاقتصاد هي تحويل المستثمرين لأوراقهم المالية إلى نقود، أي درجة المرونة التي تتحول بها أموال معينة إلى نقود، و تعني بالانجليزية Reversibility [2]، و هذا إن دل على شيء على أنه يفهم في تلك الميادين، و على الأقل طرق باب التخصصات الأخرى ، و هنا تكمن براعته، فهو لم يبقى حبيس المفاهيم التي يوفرها علم الاجتماع فقط، بل بالعكس من ذلك تمكن من صقل مفاهيم جديدة تخدم علم الإجتماع. " و عليه استعمل باومان مصطلح السيولة بشكل كبير في كل مؤلفاته حتى عُرفت فيما بعد سلسلة السيولة المدّونة في كتب الفقه الاستراتيجي، مما جعل باومان يركز على استعماله لهذا المصطلح هو أخذه لتلك الحالة الفيزيائية للمادة لّما تكون صلبة و انتقالها إلى حالة اخرى تكون لزجة، مائعة، سائلة؛ فهو أخذ هذا الشكل و هذه الصورة كي يعّو بشكل بالغ و كبير عن الكيفية التي تحول لها

[1] – أحمد المنصور : **معجم مصطلحات الفيزياء**، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، 2015 ، ص 46.

[2] – احمد مختار عمر: **معجم اللغة العربية المعاصر** ، عالم الكتب ،القاهرة، ط1 ، 2008 ، ص 87.

المجتمع من حالة الصّلابة (الحداثة) الى حالة الميوعة (ما بعد الحداثة)[1] ، و على هذا يُعتبر مصطلح السيولة نقطة تلاقي لما أخذه باومان من العلوم الأخرى و وظفه ليوصل للقارئ أن حالة المجتمع الحالي في تردية كحالة المادة المائعة السائلة التي لا تعرف ثباتا .

ولا بد لنا من وقفة مع مصطلح السيولة و كيفية استعانته من ، هذا المصطلح الذي وسم مجموعة من مؤلفاته، فهو يجعل من السيولة بهذا المفهوم تلك المرونة التي تقف في وجه الصلابة في كل الميادين، يقول أيضا : (السيولة هي الصلابة الوحيدة، و اللايقين هو اليقين الوحيد)[2] ، إنها تقنية الصهر و التمييع و الإذابة، و في ظل السيولة كل شيء ممكن أن يحدث، لكن لا شيء يمكن أن نفعله في ثقة و اطمئنان، و مفهوم السيولة لا يظهر فقط في سيولة الحركة و التنقل نتيجة التطورات المتسارعة في وسائل الاتصال و الانتقال، بل هي تصل الى حد سيولة المشاعر و العلاقات و المعاني، لأن المعنى قد غاب تحت نير التنقلات و البحث و اللهاث وراء كل جديد[3] .

فمثلما تكون السيولة في المادة حالة فيزيائية في الطبيعة (كقابلية التدفّق السيلان، غير قابلة للانضغاط) تكون أيضًا في العلاقات الاجتماعية، وداخل التركيبة الاجتماعية، ذلك انطلاقا من أننا نعيش في مجتمع حديث سائل، وهو مجتمع تتغير فيه الظروف التي يعيشها أعضاؤه بسرعة لا تسمح باستقرار الأفعال في عادات وأعمال منتظمة. وهكذا تتغذى سيولة الحياة وتنمو وتترعرع على سيولة المجتمع، وتستمد طاقتها وحيويتها منها والعكس صحيح. والحياة السائلة تماما مثل المجتمع الحديث السائل. لا يمكن أن تحتفظ بشكلها ولا تظل على حالها وقتًا طويلا ففي هذه الحياة لا يمكن لتجارب الماضي أن تستوعب ما يطرأ على الظروف من تغيرات سريعة غير متوقعة إلى حد كبير. وربما لا يمكن توقعها وهذا يعني أن

---

[1]– يسرى وجيه السعيد : **مصطلح السيولة وارتداداته عند باومان** ، مؤسسة مؤمنون بلاحدود، 14 ديسمبر 2016 mominoun.com .

[2]– بول هوبر: **نحو فهم للعولمة الثقافية**، ترجمة طلعت الشايب، المركز القومي للترجمة، ط1، 2011، ص 28.

[3]– ليلى الجهني: **في معنى أن أكبر**، دار الآداب، بيروت، ط 1، ص 17.

الركون إلى أحداث ماضية في استقراء المسارات المستقبلية صار وكانه مجازفات بالغة غير مسبوقة؛ بل وعلى حسابات مضللة في الغالب بل أصبحت مجهولة ولا يمكن الركون إلى احتمالات مساراتها المستقبلية ركونا تاما مطمئنا[1] فما أشبه وضعنا بالتزلج على جليد عائم يعني أن سلامتنا في سرعتنا وخفتنا.

بعض السوائل تتدفق بشكل كبير عندما تقترب درجة حرارتها من الصفر المطلق وتنساب بلا توقف على جوانب الأوعية الحاوية لها مهملة قوى الاحتكاك والجاذبية. وبإمكان هذه السوائل التي توجد في درجات الحرارة البالغة الانخفاض أن تخترق الطوب والدوران بلا توقف ...وفي السياق نفسه نجد السائل أو السيولة بوصفها حالة سادسة للمادة حيث تنقض كل القوانين الفيزيائية الأكيدة للسوائل[2] فمثلما هو الحال للمادة هنا كان الأمر مشابها في طريقة العيش ضمن الحياة السائلة الجديدة للمجتمعات إذ إن تجربة العيش في هذه الحياة تلخصها عبارة بليغة شهيرة الخوف دائم في كل مكان وهذا الانتشار العام للخوف يرتبط بالظلام السائد؛ إذ يُمكن أن تقع آية واقعة ولا أحد يعلم مآل ذلك.

فليس الظلام هو سبب الخطر ولكنه الموطن الطبيعي للإحساس بالخوف واللايقين، فهي حياة محفوفة بالمخاطر يحياها المرء في حالة من اللايقين الدائم وأشد هاجس يساور المرء في تلك الحياة هو الخوف من أن تأخذه على حين غرة. ومن الفشل في اللحاق بالمستجدات المتسارعة، ومن التخلف عن ركب السائرين ومن إغفال تواريخ نهاية الصلاحية؛ فالحياة السائلة سلسلة من البدايات الجديدة التي تكون النهايات فيها سريعة مؤلمة وهي أصعب لحظات الحياة السائلة وأوجعها، فنحن نعيش في عالم حديث سائل لا يعترف إلا بيقين واحد ألا وهو اليقين بأن الغد ليس ما يمكن أن يكون ولا ما ينبغي أن يكون بل ما يكون هو التدريب المستمر على الاختفاء والذوبان والانسحاب والرحيل.

---

[1]– زيغمونت باومان: **الحياة السائلة**، تر حجاج أبو جبر ، الشبكة العربية للأبحاث والنشر ،ط1 ،بيروت، 2018، ص 22.

[2]– أسامة ممدوح عبد الرزاق مصطفى شرف: **السيولة الفائقة أغرب حالات المادة**، مجالسنا مجالس التعليم العصري، www.majalisna.com، 17/04/2021

إن السيولة بلغت كل شيء، ولم تستثن أي شيء جعلتنا غرقى جميعا إلى الأذقان فالجميع يبحر فيها ومحيطها غارق في الصباب حيث لا نرى شيئا ونعجز عن الحركة. ففي الضباب يكون المرء خرا، ولكنها حرية في ضباب فيُ مكننا أن نرى على مسافة 30 أو 50 قدما، ويُ مكننا أن نفرح بالأشجار الجميلة على طول سيرنا في الطريق، وأن تلاحظ المارة في الطريق، وتجتنب الاصطدام بالآخرين وتتفادى الصخور الضخمة أو حفرة أمامنا، ولكن قلما نستطيع أن ترى أبعد من ذلك أو أن ترى السيارة التي تبعد عنا بضعة مئات من الأقدام وهي آتية بسرعة عالية في اتجاهنا، وإن من سمات العيش في الصباب أن يقيننا يستهدف جهودنا الاحترازية، ويُ ركّزها على الأخطار المرئية والقريبة تلك الأخطار التي يمكن توقعها وحساب احتمالاتها ولكن أفظع الأخطار وأبشعها هي بالتحديد تلك التي من المحال توقعها، إنها الأخطار غير المتوقعة وغير القابلة للتوقع[1].

وبالتالي السيولة خطر محدق على حسب باومان، و هذه الأخيرة لا تخص المجتمع من جهة معينة بل تخص كل أقطاب الكرة الأرضية، باعتبارهم يعيشون في قرية واحدة فباومان أراد أن يوجه أسهم الحذر إلى جوانب هذا الأخطر المحدق، وذلك بإعادة النظر في العديد من الامور وصولاً إلى الفرد العادي البسيط.

[1]– فاروق بن شرف الله ، محمد غازي، **نظرية التقاطع المعرفي في علم الإجتماع**، زيغمونت باومان أنموذجا، دورية نماء لعلوم الوحي و الدراسات الإنسانية، العدد 13، ربيع 2021 م.

الفصل الثاني: تمظهرات السيولة في فلسفة باومان (الحداثة السائلة أنموذجا)

1- الحداثة (تضارب المفاهيم).

1-1- مفهوم الحداثة الصلبة.

1-2- مفهوم الحداثة السائلة

2- أزمة الحداثة وإنبثاق الحداثة السائلة.

2-1- مقومات الحداثة الغربية.

2-2- نقد مقومات الحداثة الغربية

1- الحداثة (تضارب المفاهيم).

يتفق أغلب الدارسين على أن الحداثة من المفاهيم الغامضة المركبة، والتي تضارب بموجبها أقوال الفلاسفة والمفكرين بين مهلل و مبارك ، وبين رافض لها جملة وتفصيلا ، لا لشيء إلا لكون « مفهوم الحداثة مفهوما عائماً ملغوما ، يلغي ذاته بإستمرار، يبدو أنه إستطاع أن يخلق فينا ردود فعل متناقضة وتواتًرا نادًرا بين الإرتكاس والإنبهار بيت الدعاية اللامشروطة والرفض التام »[1] و بهذه الكيفية تم إستقبال مفهوم الحداثة فخصص له الفلاسفة والمفكرين مساحات كبرى ضمن مؤلفاته و فضاءات واسعة للحوار و النقاش . وتعتبر الحداثة مرحلة إستنارة أعلنت عن سلسلة من النهايات نهاية القديم،نهاية الميتافيزيقا ،نهاية الخرافة ، نهاية الأسطورة وغيرها من النهايات. معلنة بذلك عن سلسلة من البدايات بداية عصر جديد ، بداية العقلانية، بداية النزعة العلمية ، بداية النزعة التجريبية، بداية النزعة التقنية حيث أصبحت الحداثة عبارة عن مضخة تعمل بنهم من أجل «بث منتوجات النشاط العقلي والعلمي والتكنولوجي والاداري» [2] ليصبح بذلك عصر الحداثة عصر سلطان العقل والعلم .

لقد قدم باومان وصفاً دقيقاً لهذه الحقبة في كتابه الحداثة والهولوكوست قائلاً «شهد عصر التنوير تأليه الطبيعية وشرعنة العلم بوصفه دينيها الحنيف و العلماء بوصفهم أنبياءها و كهنتها »[3] ليتم بذلك تأليه العلم وتقديس العلماء بوصفهم أنبياء .

[1]- محمد الشييكر: **هيدجر وسؤال الحداثة**، دار إفريقيا الشرق، المغرب، 2006، ص 9.

[2]- آلات تورين : **نقد الحداثة**، تر : عبد السلام الطويل، مراجعة محمد سبيلا، إفريقيا الشرق، المغرب، 2010 ص 15

[3]- زيجمونت باومان: **الأخلاق في عصر الحداثة السائلة**، تر: سعد البازغي، بثينة إبراهيم، أبوظبي للسياحة والثقافة ط1 2016 ، ص 11.

«و غدت الحقيقة والخير والجمال، أي كل ما هو كائن، وكل ما ينبغي أن يكون أشياء يمكن إخضاعها للملاحظة الدقيقة المنهجية»[1] فلا شيء يفلت من سلطان العلم والتقنية.

إن الحداثة بهذا المفهوم تعبر عن مرحلة صلبة متينة من مراحل تطور العقل البشري، أو قل بعبارة أخرى إنها عبارة عن حداثة صلبة كما أطلق عليها بعض الدارسين، فما المقصود بالحداثة الصلبة ؟

1-1- مفهوم الحداثة الصلبة :

إن الحداثة بمفهومها العام تشير الى ذلك العصر الذهبي المليء بالإنجازات الضخمة و الصلبة و في الحقيقة أنه ليس هناك فرق بين الحداثة والحداثة الصلبة وهو الأمر الذي أكده باومان في قوله « الحداثة الصلبة هي تلك التي دشنها عصر التنوير في القرن الثامن عشر تأسست على تحولات وارهاصات تنامت منذ إنتهاء العصور الوسطى وتصلبت في عصر العقلانية[2] .

ليكون بذلك عصر العقلانية هو عصر إنتاج مجموعة من التصلبات كان أبرزها :

أ. **تفعيل مركزية الإنسان** : في الحقيقة كما ذكر باومان « جاءت الحداثة الصلبة لتؤكد مركزية الإنسان وقدرته على بسط سلطان العقل على الطبيعة الجامحة و تسخييرها لخدمة البشرية وتقدمها »[3] وبالتالي القضاء على كل مظاهر السحر والخوف والوهم وتأليه الطبيعية

[1]- زيجمونت باومان: **الحداثة والهولوكوست**، تر: حجاج أبو جبر دنيا رمضان ، مدارات لأبحاث والنشر، القاهرة ط (1) ، 2014 ، ص11.

[2]- المصدر نفسه، ص 14.

[3]- زيجمونت باومان : **الأزمنة السائلة**، "العيش في عصر اللايقين"، تر: حجاج أبوجير تقديم :الهبة رؤوف، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط (1) ، 2017 ، ص7.

وتقديسها، لأن المعادلة في عصر الحداثة الصلبة قد إنقلبت رأسا على عقب، فبعد أن كانت الطبيعية هي السيطرة ومصدر الخطر على الإنسان أصبح الإنسان مصدر خطر.

على الطبيعية، وذلك من خلال تطويعها وتسخيرها لخدمته وتهذيبها ، فأصبحت مجرد عبد مطيع مستسلم لجرافات العلم والتقنية بكل أنواعها.

ب. مركزية التخطيط والتنظيم : إن مركزية الإنسان ألقت بظلالها على شؤون الحياة وكيفية تنظيمها، فكانت الدول في حقبة الحداثة الصلبة تعتمد على سياسة التنظيم المركزي المحلي، أي أن تتدخل الدولة في تسيير وإدارة شؤون المواطنين، وبالتالي تسهيل طرق التعاملات وسبل الحياة ، ولاسيما الإدارة، فكانت الحداثة الصلبة كما يقول باومان – تحتاج «الى أهل تخطيط وتنظيم يرسمون تصورهم للفردوس الأرضي ويشيدون جنة الخلد هنا الأن»[1] وهنا يشير باومان الى المركز و المكان ، وهو ما يقودنا الى الخاصية الموالية وهي رسم الحدود وضبطها.

ج. رسم حدود الدول وضبطها : المركزية تشير أيضا الى مركزية حدود الدولة ووضوحها، ففي مرحلة الصلابة كانت حدود الدول خطاً أحمر، كانت كل دولة تسعى لضبط خريطتها الجغرافية مع جيرانها ضبطاً دقيقاً « فكان من سمات الحداثة في تلك الحقبة ثبات ووضوح الحدود والمعالم»[2]، وكان ذلك يسري على جميع المجالات والقطاعات، إذ هي « الحداثة الصلبة التي تكرس جهدها لترسيخ وتحصين مبدأ السيادة الحدودية الإستثنائية »[3].

د. تكريس مبادئ الليبرالية وإرساء أسس الرأسمالية الثقيلة : تمظهرت تجليات الحداثة الصلبة من خلال تفعيل ما يسمى بالرأسمالية الثقيلة، والتي تجسدت من خلال المصانع الضخمة والمعدات الثقيلة، والعمال المتقانين في عملهم، خاصة وأن رواد الحداثة الصلبة قد

[1]– المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.

[2]– المصدر نفسه ، ص8.

[3]– زيجمونت باومان : **الأخلاق في زمن الحداثة السائلة:** مصدر سابق، ص 25.

بشروا بعالم أفضل وبتحسين المستوى المعيشي، وتحقيق إقتصاد مستقر ينتهي بتلبية كل متطلبات وحاجيات الإنسان .

لكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا: إلى أي مدى صدقت وعود الحداثة الصلبة ؟ وهل الحداثة الصلبة كانت صلبة حقا في جوهرها كما قال باومان ؟

يمكن إختصار الاجابة عن هذا السؤال ضمن مقولة باومان عن الحداثة إذ هي « حالة من التحديث الوسواسي القهري الإدماني، وتحسين الأشياء باستمرار، وهي بذلك أشبه بسيف حاد يستهدف، دوما الواقع»[1] و هو ما يبشر بانهيار الحداثة الصلبة وسيلانها فما المقصود بالحداثة السائلة ؟

[1]– زجيمونت باومان و دافيد ليون: **المراقبة السائلة**، تر: حجاج أبو جبر، تقديم هبة رؤوف الشركة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط 1، 2017، ص105.

1-2- مفهوم الحداثة السائلة :

تغيرت مجريات الأحداث في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى هي مرحلة ما بعد الحداثة، وهي المرحلة التي إصطلح عليها باومان الحداثة السائلة «فمفهوم السيولة يتجلى في الميوعة والسيلان والإنصهار أي الإنتقال من مرحلة التماسك والصلابة الى الإنصهار والسيولة والميوعة »[1] . و يوضح باومان في كتابة الحداثة السائلة حركة الإنتقال المواد من الصلابة إلى السيولة ويميز بين المواد الصلبة والسائلة بوصف المواد السائلة لا يمكن لها أن تبقى على هيئتها، لهذا فهي تغير شكلها باستمرار، و نجد باومان إستعمل عبارة السيولة باعتبارها الصورة المجازية المعبرة من واقع العصر الحديث [2]، يقول باومان: «إن ما تعنيه سمات الموائع كافة سالفة الذكر بلغة بسيطة هو أنها على العكس من المواد الصلبة ، لا يمكن أن تحتفظ بشكلها بسهولة ... فلا تحتفظ بشكل محدد فترة طويلة، وتكون دائما على استعداد وميل إلى تغييره ... أما المواد الصلبة فتأخذ أبعادا مكانية واضحة»[3]

إذ يوضح باومان الفرق بين حركات السيولة والصلابة وصفاتها، التي تعبر الأولى من الضبابية وعدم الثبات أما الثانية تدل على وضوح المعالم المتماسكة، ولهذا أقرن باومان مصطلح السيولة بالحداثة بسبب محاكاته للعصر الحديث. كما يشير مصطلح الحداثة السائلة إلى ذلك التعبير والتبدل الذي كانت عليه الحداثة الصلبة في شكلها المتماسك الى أخذها للشكل الجديد المتمثل في السيولة التي تدل على المرحلة الما بعد حداثية فقد استخدم المصطلح (الحداثة السائلة) الإشارة إلى الشكل الراهن للوضع الحديث الذي يصفه مؤلفون أخرون بأنه ما بعد حداثة أو الحداثة المتأخرة أو الحداثة الثانية أو الحداثة العليا[4] .

---

[1]- شراد فوزية: **من الحداثة الصلبة الى الحداثة السائلة**، مكامن التأزم وسبل الإنفراج – من منظور باومان : سلسلة أبحاث المؤثر السنوي الدولي، المجلد 03، العدد 05، 2018، ص 749.

[2]- زيجمونت باومان : **الحداثة السائلة**، مصدر سابق، ص 41 .

[3]- المصد نفسه ص 42.

[4]- زيجمونت باومان : **الثقافة السائلة** : تر، حجاج أبو جبر، الشركة العربية للأبحاث و النشر ، ط1، بيروت،2018، ص 19.

إن ما يؤدي بالحداثة الصلبة للتحول إلى السيولة هو ما فسره باومان بالتحديث . الذي جعل كل شكل من أشكال الحياة في هذا العصر لا يبقى على الشكل المعهود بل يكون في تغير دائم وهذا ما يشبه السيلان والمرونة ، فمن بين الصفات التي تميز الحداثة السائلة هو إذابة كل ما هو صلب[1]. فالحداثة هي «حالة من التغير الدائم »[2] إذن : فالحداثة السائلة هي المعلنة لحرب السقوط اللحداثة الصلبة والتخلص من كل ما هو متماسك فهي تجعل كل ما يعاني الركود ولا يرضى التغيير و يقاومه ، فلا وجود للحداثة السائلة " إلا بإذابة المواد الصلبة أي تذويب كل ما يتشبث بالنقاء على مر الزمان ويتجاهل مروره أو يسلم من تدفقه و جريانه "[3].

يوضع باومان أن السبب في التسمية للحداثة السائلة هو ضحالة المسميات التي عرفتها الحداثة الراهنة، فيشير الى المصطلح الما بعد حداثي بأنه يعني الحداثة نفسها لأن ما بعد الحديث يدل على ترك شيء وراءه أي "ما بعد X سوف يعني دائما شيئا تركه X وراءه " و هذا معناه السير وفق ما كانت تسير الحداثة عليه في السابق[4] يتبين الوضوح المباشر لسبب تسمية باومان لمصطلح ما بعد الحداثة بمصطلح الحداثة السائلة من خلال تبيانه أن إنتقاءه للفظة " سائل" كاستعارة مجازية قصد التوضيح والدلالة من الوضع الحداثي الراهن.

فالسوائل تميز بخصائص مختلفة من الجماد ، وهو تعبير مجازي دال على الأوضاع المعاصرة لكون هذه السوائل لا تحافظ على شكلها بصفة رائعة لهذا فإن "استخدامها كإسعارة للمرحلة الحالية للحداثة لأن السوائل تبرز الهشاشة والقابلية للإنكسار "[5]

---

[1]– مصدر نفسه، ص19 .

[2]– زيجمونت باومان : **الأخلاق في زمن الحداثة السائلة**، مصدر سابق ص 183.

[3]– زيجموت باومان: **الحداثة السائلة** ، مصدر سابق، ص 41.

[4]– زيجونت باومان و آخرون : **مستقبل النظرية الاجتماعية** مصدر سابق، ص 46.

[5]– المصدر نفسه ص 49.

إذن : تعبر اللفظة الحداثة السائلة عن الوضع المعاصر للمجتمع البشري التي أثرت على كل جوانب الحياة كالأخلاق والثقافة والمجتمع... [1]

[1]– زيجمونت باومان وآخرون : **قوة الكلمات** – حوارات وأفكار ، تر: لطيفة الديملي دار الهدى للإعلام والثقافة والفنون، ط 1 ، 2017 ، ص 13

2- أزمة الحداثة وانبثاق الحداثة السائلة.

2-1-مقومات الحداثة الغربية (أو الحداثة و مقوّماتها الكبرى) .

إن الحداثة كنظام وخطاب معرفي جديد مناهض لمعتقدات السلطة الكنسية ووصاية كهنوتها التي سجنته لقرون عدة، ومنه كما يرى المفكر "عبد الوهاب المسيري" أن المشروع الحداثي هو: "يمثل رؤية للواقع وبرنامج لإصلاحه في ضوء معتقدات جديدة "[1]. فهو بذلك مشروع الاستنارة الذي ينطبق على كافة المستويات الأنطولوجية للإنسانية. وهنا يشير باومان "إلى أن الحداثة كانت قد حملت على أكتافها مهمة إطلاق حرية التحقق والاختيار الإنساني من أسر الغيب وعدم الثقة وغياب اليقين في القدرة على سيطرة الإنسان على هذا العالم، والقيام بحرب غير مقدسة لإخضاع الطبيعية بالعلوم وبالتالي رفع مستوى الحرية وضمان الفردية وإخراج المرء من القفص الحديدي للتقاليد "[2]و إنطلاقا من هذا فإن المشروع الأنواري يعبر عن لحظة انتقالية من – إلى وفقا على هيكلة مبنية على جملة من المقولات و المبادئ لعل أبرزها كما حددها معظم المفكرين كالتالي :

أ. **الذاتية:** ترتبط الحداثة في عموميتها بمبدأ الذات فهي لصيقتها وهذا المبدأ متعدد ومتنوع الدلالات فهو يشكل ويؤطر ما يعرف بالنزعة الإنسانية و من ثمة فهو يعني:" مركزية ومرجعية الذات الإنسانية و فاعليتها وحريتها وشفافيتها و عقلانيتها "[3]

وعليه فالتسليم بالذاتية ما هو إلا تسليم باستقلالية الإنسان عن الإله وانتقال اهتماماته نصب إنيته.

وبذلك إعلان عن تحويل مركزية العالم من الله الى الانسان و هنا تتضخم الأنا وتستعلي على كل موجود وبالتالي تأكيد على أن الحداثة قامت

---

[1]- عبد الوهاب الميسري: **دراسات معرفية للحداثة الغربية**، مكتبة شروق الدولية، قاهرة ط 1 ، 2006، ص 46

[2]- زيجمونت باومان: **الحداثة السائلة** ، مصدر سابق ص 14.

[3]- محمد سبيلا: الحداثة **وما بعد الحداثة**، دار توبقال ، المغرب ، ط 02 ، 2007،ص 18.

بالدور المنوط لها. الذي يتمثل أساسا في تفعيل الذات البشرية وجعلها المرجع والمنبع الأساسي التي إليها ومنها تصدر كل القيم من منطلق أنه الفاعل فيها و إليها، وهذا ما يشهد عليه التاريخ الحديث الذي كان حافل بالانتصارات الذاتية كالإصلاح الديني الذي شرع للذات الحرية الدينية وقراءة النصوص المقدسة، بعد ما كان ذلك حكرا على أباء الكنيسة ضف إلى ذلك الثورة الفرنسية القائمة على الشعار (الحرية / المساواة / الأخوة) وغيرها من الشواهد التاريخية التي تعضد فكرة السيادة الذاتية في العصر الأنواري.

و هذا ما لمح إليه الألماني فريدريش هيجل (1770-1831) (Fridrich Hegel) في كتبه العديدة إين إعتبره العمود الناظم في المنظومة الحداثية ، ولهذا يصف الحداثة في شكلها العام ويقرنها "بالذاتية فحرية الذات بشكل عام مبدأ التحديث ، وحين يصف هيجل الأزمة الحديثة (أو العالم الحديث) فإنه يشرح الذاتية بالحرية وبالتفكير "[1] يعني أن الانسان الحداثي قد إسترجع إيمانه العميق وثقته بفكره ، واستطاع بذلك أن يحقق وجوده الأصيل بتعبير " مارتن هيدجر(Martin Heidegger) (1889–1976)" بعدما كان يتخبط في أنطولوجيا الوعي الزائف والشقي أين ضمرت أناه وذابت في دياجين النحن.

وعليه أصبحت الذات تقرر ما يكون بمعزل عن السلطة التي كانت تملي عليه ما ينبغي أنا يقوم به وتقرر في مكانه وإستنادا على هذا صارت الذات مبدأ محدد كما يقول محمد سبيل : "لكل مجالات الفعل هذا من جهة ومن جهة أخرى محددة لكل أشكال الثقافة الحديثة فالحق والأخلاق أصبحا قائمين على الإرادة العالية الحاضرة للإنسان"[2] ومن خلال هذا المنطلق تأصل المفهوم الفلسفي للإنسان بإعتباره ذات داخل المنظومة المعرفية الغربية الحديثة.

[1]– محمد محمود أحمد : **أعداء الحداثة**، مركز فكر معاصر، السعودية ، ط 01 ، 1434 هـ ص 74.

[2]– محمد سبيلا : **الحداثة وما بعد الحداثة**، مرجع سابق ص 18 .

تبحث عن مبررات لأفعالها ومختلف أعمالها التي تقوم بها، وهي تنحني للعقل لتضفي شرعية عقلية على أفعالها فكانت بذلك السمة الأساسية الثانية اللصيقة والملازمة للذاتية هي العقلانية .

ب. العقلانية: ترتبط الحداثة أساسا بالعقلانية لهذا نجد" زيجمونت باومان "يختزل الحداثة في العقلانية بذلك تكون حسبه :" هي حالة البحث عن العقلانية والقطيعة والنظام والأحادية، ويعني أن الحداثة هي حرب العقل ضد التنوع وحرب النظام ضد الفوضى"[1] وهذا يعني إخضاع كل شيء للمحاكمة العقلية وبذلك تكون العقلانية ثمرة العصر الحداثي ومفتاحها الأساسي، وتكون بذلك مرتع الخطاب الأنواري وعلاقته البارزة كون الإنسان ماهية عاقلة بالدرجة الأولى: "تفكر و تحلل وتبرر وجود الأشياء وتعللها . وهكذا تقوم الحداثة على حركية إثبات العقول و إستبداد اللامعقول"[2] وبذلك إعتمدت منطق الإقصاء والإلغاء على مختلف الأفكار و المفاهيم والتصورات وألوان المعتقدات كالأسطورة مثلا التي همشت وأبتعدت عن النسق الحداثي، ومنذ أن أعلن "ليبنز فريدرتش Fridrich Leibnitz (1597-1652)" عن مبدأ السبب الكافي، القائل لكل ظاهرة سبب كافي معقولا لحدوثها ، هنا بالذات أصبح العقل منبع ومصدر مهم أساسي للحقيقة ووحده القادر على إكتشاف القوانين والسيطرة على الطبيعة والإنسان وبذلك نصبح أمام: "عقل أداتي يخضع كل شيء لأحكامه ولقدراته سواء تعلق الأمر بالمحال الاقتصادي أو الاجتماعي أو السياسي أو المعرفي أو الأخلاقي".[3]وعلى هذا تكون الحداثة قد تأسست على إعطاء أهمية للعقل

[1]- زيجمونت با ومان: **الحداثة السائلة** ، مصدر سابق ص 34.

[2]- فتحي التركي ورشيدة التركي : **فلسفة الحداثة**، مركز الانتماء القومي، بيروت، (د.ط)، 1992 ، ص 17 .

[3]- عز الدين الخطابي : **أسئلة الحداثة ورهاناتها في المجتمع والسياسة والتربية** ، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط 01 ، 2009 ، ص 40.

والإعلاء من شأنه إذ أنه أصبح ملازم لكل نشاط إنساني ويتفشى في كل دائرة من دوائر معرفته .

وعليه فقد حملت المعقولية في كل شيء، وهنا تغدو الرابطة الحميمية بين الحداثة والعقلانية أمرا بديهيا وينتج من ذلك نزع الطابع السحري بتعبير ماكس فيبر (Max Weber) (1864 – 1920) عن العالم، ومنه هدم و تفويض التصورات الكلاسيكية التي لا تتفق و التفسير العقلاني.

وهكذا يكون التنوير كما قال زيجمونت باومان في كتابه المراقبية السائلة : "قد ارتبط بسيادة العقل ورفعه إلى مرتبة السلطة العليا ومن التحرر من الجهل والوصايا "[1] وهذا لا يكون إلا في ظل سيادة الحرية التام في ممارساته ، وبذلك تكون المقولة الثالثة التي يتربع عليها العرث الحداثي هي الحرية.

ج. **الحرية:** إن القول بمقولة الحرية لا تقل أهمية من المقولات السابقة سالفة الذكر إذ يمكن القول بأن الحداثة هي الحرية فهي جوهر الذات البشرية والأرادة الإنسانية وغاية وجوده، فهي الشرط الأساسي للحصول على المشروعية التامة لأفعاله التي يقوم بها، وكما قال منظر الثورة الفرنسية جون جاك روسو (Jean-Jacques Rousseau) (1778-1712) "ليس الفهم هو ما يميز الإنسان عن الحيوان وإنما هو كونه فاعلا حرا "[2] وعليه فقد شدد العقل الأنواري على ضرورة الحرية فهي التي تشكل الأرضية الصلبة التي إنطلق منها المشروع الحداثي فوجدها رديف العقل والذات الإنسانية، ووجوده علامة على إنتهاء مشهد العبودية المسيحية، وبهذا تكون الحرية لما أشار إليها.

[1]– زيجمونت باومان وليون دفيد: **المراقبة السائلة**، مصدر سابق، ص 8.

[2]– محمد الشيخ : **فلسفة الحداثة في فكر المثقفين الهيكليين الكسندر كوجيف وإريك فايل**، الشركة العربية للأبحاث والترجمة ،لبنان، ط01 ،2008، ص91.

زيجمونت باومان في العصر الحديث تظهر في "علاقتها الصميمية بالفردية. ووجود الحرية وارتباطها الثقافي بإقتصاد السوق والرأسمالية"[1]. ويعني بذلك سعي الفرد الحر للإنتاج وفق مبدأ آدم سميت (Adam Smith)(1723-1790) " دعه يعمل اتركه يمر". فالفرد بذلك يعمل بغية البحث عن المربح والفائدة وإشباع الحاجات الإنسانية.

وعليه فالحرية كما لمح الى ذلك باومان ترتبط بالرأسمالية و هنا تتشكل الدولة الحديثة التي هي "دولة الكونية المنسجمة المعقولة دولة المواطنين لا الرعايا ، ودولة و دستور لا دولة حق المملوك الإلهي في الاستبعاد ودولة حرية الاعتقاد لا إمبراطورية جبرية"[2] ومستفاد من هذا القول جعل الإرادة البشرية الحرة هي المشرعة والمسطرة على كل شيء دون الارتكاز على أية نقطة متجاوزة لها ، ولهذا المبدأ تمثالاته عند فلاسفة العصر الأنوارى ، فنجده متجسدا أوله ابو العقلانية الفرنسي روني ديكارت (Rene Decartes)(1596 -1650): "أين ربط كنه الفكر بالإرادة ، وأوسطه عند ليبنر الذي عمم مبدأ الإرادة وهذا ما جعل من كل كائن آني كان شأنه كائنا متمثلا مريدا ومنتهاه تحقق من كانط الذي جعل من الانسان الكائن الحر بإمتياز "[3] الحرية بهذا المعنى وفق للمنظور الحداثي و هي الإ اعتراف بالأخر بوصفه إرادة حرة لها حق الاختلاف والتواصل داخل فضاء سياسي أو اجتماعي يحكمه التفاهم والعقل التشاوري كما لمح لذلك الألماني يورغن هابرماس (Jürgen Hebermas) ولد سنة (1929) في كتبه المتعددة حول أهمية العقل التواصلي البين ذاتي .

إذن : يظهر من خلال هذا كله أن هذه المبادئ (الذاتية، العقلانية، الحرية) من أهم المرتكزات التي استند إليها المشروع الأنواري في تشييد عرينه الفلسفي ، فهي تمثل القوالب الصلبة التي يقف عليها الانسان الحداثي ما لبث أن إنحرف عن مساره الأصلي ولهذا يقول

---

[1]– زيجمونت باومان : **الحرية السائلة** ، تر: فريال حسن خليفة ، مكتبة مدبولي ، القاهرة. ص 68.

[2]– محمد الشيخ : **فلسفة الحداثة في فكر هيجل**، الشبكة العربية للأبحاث تر، بيروت ، ط1، 2008 ،ص 26 .

[3]– المرجع نفسه من الصفحة 27 .

أن: "وعد الحداثة قد أخلف"[1] و بالتالي لم تف الحداثة بما وعدت به الإنسان بعدما نصبته سيدا اعطت له الحرية الكاملة وفكته من جميع قيوده .

فالتقدم الذي نشدته ولطالما تغذت به مالبث أن إنحرف من مكانه وتحول الى "واقع مرير وحرية متطرفة بعد ما كانت أبرز تجليات التفاؤل الجذري والأمل بتحقيق السعادة الدائمة للجميع "[2] .

[1]– زيجمونت باومان : **الحياة السائلة** ، المصدر السابق ، ص12 .

[2] – زيجمونت باومان: **الخوف السائل**، تر : حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والترجمة ، بيروت، ط01 ، 2017 ، ص186.

2-2- نقد مقوّمات الحداثة الغربية

حاول باومان في كتاباته العديدة أن يقدم قراءة ومساءلة نقدية لمآلات المشروع الحداثي فهو بذلك يحاول أن يفكك قوالب الحداثة ويواصل عمل مدرسة " فرانكفورت " و " ماكس فيبر" في نقد الحداثة و يعترف بفضل زوجته "جنينا " في إكتمال رؤيتة النقدية للحداثة الغربية [1]. وتأسيسا على ذلك حاول باومان أن يبين أعطاب الحداثة ومعالم الشروخ فيها ويظهر ذلك جليا واضحا في كتابه الحداثة والهولوكوست أين إنتقدها في عدة نقاط أهمها :

أ. نقد العقلانية : إذا كان باومان كما أشرنا إليه سابقا يختزل الحداثة في العقلانية، فإنه يرى أنها إنتهت إلى الأداتية وحوصلت العقل الإنساني وجعلته مجرد أداة مسيطرة على الطبيعة. وعلى نفسه ونتيجة لذلك رأى الألماني يورغن هابرماس

(Jürgen Hebermas:1929) أن «العلم والعقلانية في عصر الرأسمالية وكأنهما إنقلبا ضد الشيء»[2]. ويعني بذلك أن الإنسان الحداثي صار عبداً للعقلانية الأداتية وهذه الأخيرة إستعمرت فضاء الحياة الرحب و إرتكبت مجازر في حق البشرية ويقصد بذلك باومان المحرقة اليهودية أو الهولوكوست *التي كانت «وليدة العقل الوظيفي والنظم البيروقراطية الحديثة »[3]

فالإبادة كظاهرة حداثية غربية توحي بوجود هوة عميقة بين القيم والفعل وبذلك يصبح الفعل محايد و بعيد وخارج دائرة الصواب والخطأ و بمنأى عن أي بعد أو معيار اخلاقي

---

[1]- زيجمونت باومان: **الحياة السائلة**، مصد سابق ص 12.

[2]- عبد الرزاق بلعزوز : **أزمة الحداثة ورهانات الخطاب الإسلامي** ، منتدى المعارف، بيروت ط 1 ، 2012، ص 26

* الهولوكوست : يشير إلى المحرقة (SHOAH) وفي اللغة العربية الكارثة وهي عمليات الإضطهاد والقمع التي أنتجها النظام الألماني النازي تحت قيادة أدولف هتلر: غرضها قتل6 ملايين يهودي في أوروبا التي بدأت سنة 1933 وإنتهت سنة 1945، أنظر: الموقع الإلكتروي:

https://encyclopedig.ushmm.org/content/ar/article/introduction-The-holocaust#..0

تاريخ الدخول 18/05/2022 وقد جسدت واقعة الهولوكوست في فليم The pianiste الذي سرد وضع اليهود في بولندا في ح.ع ثانية.

[3]- زيجمونت باومان: **الحداثة السائلة**، مصدر سابق ص 04.

وعلى هذا لا مقياس إلا للفصل الألي و من هنا رفض باومان الحداثة كونها إنتهت الى جملة الكوارث البشرية (خاصة الأخلاقية) ويرجع ذلك إلى:

– تحييد الفعل الأخلاقي وإخراجه من القانون الأخلاقي وتجريد البشرية من الحس الأخلاقي.

– تجريد النفس البشرية من المسؤولية الأخلاقية وعن تبعات أفعالها" [1]وعليه فقد سيطرت العقلانية الأداتية على الفعل الإنساني وجعلته خاو من أي بعد تقيمي وقلصته من أي بعد حسي أخلاقي وهذا إعلان عن انحراف التحديث عن غاياته القصوى التي سطرها المشروع الأنواري ، وبذلك إختزال الإنسان في بعد واحد فقط ، الا وهو الأداتية التي" تبلورت معالمها وتضحت مع الثورة العلمية الحديثة التي شهدتها أوروبا التي عبر عنها فلاسفة محدثون كبار و على رأسهم روني ديكارت(René descartes: 1596) و فرانسيس بيكون (Francis Bacon : 1561-1626) و دافيد هيوم (David Hume) (1711-1776) و إيمانويل كانط (Immanuel kant 1724 –1804) "[2] و منه أصبح العقل الأداتي هو السيد المهيمن على المجتمعات الرأسمالية الحديثة التي فقد فيها العقل وظيفته ودوره المنوط إليه باعتباره ماهية الإنسان، فقد تم تفويضه وجعله أداة لتحقيق أغراض ومرامي معينة، و هنا فقد العقل رؤيته للهدف ودفع ثمن تقاعسه المسبق ، وبذلك فقد قدرته على التمييز بين الحسن و القبيح هذا من جهة ومن جهة أخرى فقدانه القدرة على إدراك الحقيقة وبذلك يصبح الهم الأساسي لهذا العقل هو السيطرة والتوسع الأمبريالي.

وهذا ما لمح إليه عبد الوهاب المسيري (1938–2008) في قراءته للمشروع الحداثي الغربي. إذ يرى أن الحداثة : " ليست مجرد إستخدام العقل والعلم و التكنولوجيا بل هي

[1]– زيجمونت باومان : **الخوف السائل** ، مصدر سابق، ص 123.

[2]– كمال بومنير: **النظرية النقدية المدرسة فرانكفورت الى ألكسيل هونيث**، منشورات الاختلاف، الجزائر، ص 13.

استخدام العقل والتكنولوجيا المنفصلة عن القيمة وهذا يعد أمر مهم في المنظومة الحداثية الغربية، ففى عالم متجرد من القيمة تصبح كل الأمور متساوية ثم تصبح كل الأمور نسبية"[1].

وهذا يعني أن قيم الثبات التي كان يقف عليها الإنسان الحداثي تعد إشارة واضحة على إفلاس العقل، ورغبة الإنسان الملحة للبحث عن أسباب المنفعة والفائدة ، و من هنا تشيء الإنسان وإعلان عن إنسلاب معناه .

وبهذا يصبح الهم الأساسي لهذا العقل هو السيطرة لذلك تراخت الحدود وتشرذمت وأصبحت هشة تعلن عن أرضية رخوة وقد حدث ذلك نتيجة لكون الحداثة وسيسولوجيتها قد بدلت موقعي " الإنسان و الأخلاق"، دخل نظام المعرفة الكونية وإنتزعت الانسان من التاريخ ونصبته إلها رائفا خارجه، وأسقطت الأخلاق داخل التاريخ ففقدت فاعليتها "[2] ومن ثمة أصبح قيم الأخلاق تتخبط في بوتقة النسبية من منطق كون المصدر الإنسي ملهمها ، لهذا فإن الجرائم التي ارتكبت في حق اليهود كما يرى باومان علامة بارزة على فشل الحداثة الغربية وليست نتاجاً لها، فهو يعد شاهد عيان على ذلك، وهذا أثر الظلم الذي لحق به وعائلته و زوجته الأولى في بولندا أو حتى عندما هاجر إلى الدول الأخرى.

ومنه فالعدمية التي إنتهى إليها الإنسان الحداثي تعد إشارة واضحة على إفلاس العقل، ورغبة الإنسان الملحة للبحث عن المنفعة ومن هنا نشيء الانسان وهذا ما أشار إليه جان بودريار jean Baudrillard أين يرى أن ثورة القرن العشرين لها بعد الحداثة التي هي الصيرورة الواسعة.

[1]– عبد الوهاب المسيري : **دراسات معرفية للحداثة الغربية**، المرجع السابقة من 52 .

[2]– زيجمونت باومان: **الحداثة والهولوكوست**، مصدر سابق ص 16 .

تدبير المعنى"[1] من هذا المنطق قد وصلت المنظومة الحداثية الغربية الى نقطه اللاعودة مما جعلها تتهافت عليها سهام النقد من كل حدب وصوب ، ما جعل باومان يعد من أهم علماء الاجتماع الذين حللوا الظاهرة محاولا بذلك إعطاء تقارير من أرض المعركة كما يقول .

ب. نقد الفردية : اذا كان باومان يربط الحريه بالنظام الراسمالي ، وان الانسان استطاع ان يمارس نشاطه الاقتصادي بحريه تامه وفق شعار ادم سميث " دعه يعمل اتركه يمر" فان ذلك جعل الفرد الحداثي يحاول بشتى الطرق تحقيق المنفعه والوصول الى الربح، هذا ما ولد ما يسميه باومان النزعة الفردية individualism، هذه الاخيرة من أهم النقاط التي ركز عليها في باومان في نقده للمشروع الحداثي لان المجتمع الحداثي جعلنا ننظر الى أعضاء المجتمع في شكل أفراد "وقد ظهر مصطلح الفرد individual في الوعي الاوروبي منذ القرن السابع عشر"[2] أين تم الإعلان عن الحالة الانتقالية من الله الى الانسان من السماء الى الارض وبالتالي اصبح الفرد يتمتع بالحرية و الاستقلال الذاتي ، وفي هذا المجتمع يصبح الفرد مجرد عضو من الأعضاء الكثيرين يلهث وراء تحقيق مآربه ومصلحته الشخصيه بمنأى عن الجماعة، بهذا تحرير الانسان من سلطة الجماعه يجعلهم أفراد لا مبالين، فالفرد كما يقول أليكسيس دوتوكفيل (Alexis Detocueville) :

"هو ألد أعداء المواطن شخص يميل للبحث عن رفاهيته عبر رفاهية المدينة، بينما الفرد يميل الى اللامبالاة والشك والريبة في القضية المشتركة والمصلحة العامة أو المجتمع العادل" [3].

---

[1]– جان بودريار: **المصنع و الإصطناع** ، تر: جوزيف عبد الله ، مركز دراسات الوحدة العربية ، لبنان ،ط01 ،2008، ص241.

[2] – زيجمونت باومان: **الحياة السائلة**، مصدر سابق، ص 39.

[3] – زيجمونت باومان: **الحداثة السائلة**، مصدر سابق، ص 83.

والمستفاد من هذا القول انه لم يعد الحديث عن المجتمع بل كل الحديث ينحو صوب مفهوم التجمع ، وعليه فهذا إعلان عن نهاية تعريف الإنسان بوصفه كائن إجتماعي بطبعه على حد تعبير آلان تورين (Alain Touraine) .

و من ثمة فتشكل الفردية في الوعي الحداثي يوحي بإضعاف النسيج الاجتماعي و تأكل الأطر الاجتماعية و هشاشة النظم التقليدية ، و بهذا تكون النزعة الفردية ثورة على الجماعة بقول باومان :" لقد تراجعت الجماعة، كما أن نظامها المناعي الذي يحميها من المشكلات صارت مشكلة في ذاتها "[1].

وعليه فما دامت الجماعة قد اضمحلت فقد حل محلها مصطلح الشبكة بدلا من العبارات التي كانت رائجة و متداولة سابقا في التعبير عن العلاقات الاجتماعية كالنظم والبنى ... مجتمعات وجماعات... التي تروم للسيطرة طويلا يقول باومان:" إذا كانت الأبنية تشمل

(الشمول و الضم والامساك والحفظ والتقييد والاحتواء) ، فإن الشبكة تشير الى التفاعل الدائم للاتصال والانفصال"[2]، وعليه السيرورة الفردية تجلت في المعاملات الإنسانية المختلفة وأصبح الفرد يدخل في علاقات اجتماعية مبنية على أرض رخوة و مرنة لا تدوم لوقت طويل وهذه السمة الأساسية لإنسان الحداثة السائلة ،التي هي في سيولة مستمرة و ميوعة متواصلة عصفت بكل مراكز الثقل لصالح اللعب الحر.

إنطلاقا من جملة النقاط التي انتقد فيها زيجمونت باومان التنوير الحداثي وصل إلى أن هذا المشروع لم يكن صلب بما فيه الكفاية ولهذا فقد آل إلى نهايته وإنتهى بنا الى زمن اللايقين المزمن وواقع إنساني متأزم يشكل الخوب وسواسه القهري وينسج عليه شرنقته التي ما تنفك تؤرقه كل حين ، وهذا ما يجعلنا نسلم بمرحلة ثانية للحداثة كما يسميها أغلب

[1]– زيجمونت باومان : **الحياة السائلة**، مصدر سابق ص 45.

[2]– زيجمونت باومان : **الأخلاق في عصر الحداثة السائلة**، مصدر سابق، ص 31.

المفكرين بمرحلة ما بعد الحداثة ، و يطلق عليها باومان مقولة الحداثة السائلة ، التي تنظر إلى العالم خلاف معايير و قيم التنوير بوصفه "طارئا عرضياً بلا أساس متينا بعيدا عن الثبات وبعيدا عن الحتمية (...) و بوصفه مجموعة من الثقافات أو التأويلات الخلافية التي تولد قدرا من ارتياب حيال موضوعية الحقيقة والتاريخ والمعايير"[1] ويعني ذلك أن التغيير الذي طرأ على المنظومة الحداثية الغربية ما هو الإ دلالة على التشظي الذي إستفحل خطره في كافة مجالات الإنسانية.

وعليه فقد إنتهت السرديات الكبرى التي كان ينسجها العقل الأنواري من قيم التقدم والثورة والتنوير ... كما يسميها فرانسوا ليونارد Jean-Francon Lyonand

إلى سرديات صغرى تدور حول الذات الإنسانية فقط، بهذا تكون ما بعد الحداثة: "الشك في ما وراء السرديات ... إن هذا الشك نتيجة التقدم العلمي"[2] وعليه فالتقدم العلمي الهائل والثورة التكنولوجية وسيادة النزعة الفردية التي طبعت الفكر الحداثي خلفت إنسان مستهلك يسعى لتلبية حاجاته الفردية التي لا تنتهي وهذا ما جعل أغلب المفكرين يقرون أن المشروع الحداثي :"مشروع لم يكتمل كما يقول يورغن هابرماسJürgen Habermas

بل هو مشروع آل إلى الفشل "[3] وعلى إثر موجة التغيير التي إنتهى إليها الإنسان المعاصر والتي تفوق حدود القدرة الإنسانية هذا ما أضعف إيمانه العميق بقيم البارحة فأصيب الإنسان بنوع من الدوران .

ج. **نقد الحرية:** لا يمكن تصور الإنسان الحر إلاّ في مجتمع حر، إنها القاعدة التي يؤمن بها الفلاسفة وعلماء الاجتماع والحرية في مجتمع الحداثة السائلة كما يرى باومان لا يقصد بها أن تفعل ما تشاء ، ولا تعني غياب كل الضوابط الاجتماعية والقيود الأخلاقية، بل على العكس من ذلك هي أن تفعل وأن تعيش وفق بهذه الضوابط والقيود هو معنى الحرية

[1] – محمد جديدي : **الحداثة وما بعد الحداثة في فلسفة رتشارد روزتي** ، منشورات الإختلاف، ط 01 ،2008، ص 145.

[2] – مانويل ماريا ريكو : **خطابات الحداثة** ، تر: إدريس كثير، عز الدين الخطابي ، منشورات ما بعد الحداثة ص 26.

[3] – محمد سبيلا وبن عبد العالي عبد السلام: **ما بعد الحداثة** ، دار توبقال ، المغرب ، ط 01، 2010 ،ص 33.

الحقيقي فبقدر ما يتحمل الانسان مسؤولية أفعاله ، بقدر ما يبرهن على حريته و هو ما يؤكده باومان في قوله:" ويكون الناس أحرار بشكل أساسي باعتبارهم يتحملون مسؤولية نتائج أفعالهم، وفهم الحرية قد يستمد من بعض العقائد والمعتقدات الأخلاقية المؤسسة دينيا، أو المبنية قانونا أو بشكل فلسفي ، كثيرا ما يكون الناس أحرارًا بصورة أساسية باعتبار حياتهم يمكن أن تكون لا شيء إلا مشروعهم الخاص ، ولا يتصورونها باعتبارها سلسلة تنازلات أو خضوع للضروريات"[1].

إنه المفهوم الجديد للحرية السائلة في المجتمع الجديد الذي فرضته الحداثة السائلة بكل معطياتها وعليه :" إن تاريخ الحرية يقوم على سلسلة إعادة الصياغة وإعادة التعريف فتاريخ الحرية يقيم جسرا. يمتد فوق حسب المدى العريض للتشكيلات الاجتماعية بتعارضتها الدقيقة و صراعات القوة"[2] فعلا لقد استطاع الإنسان الحداثي أن يكتسب حريته خاصة الحرية الفردية والاقتصادية وهي الحرية التي بنيت عليها الأنظمة السياسية والاقتصادية ، وعرف إنسان الحداثة بعض الرفاهية والسعادة التي يبحث عنها ولكن باومان لاحظ إن الحرية في هذا المجتمع المعاصر والليبرالي تحديدا تفرض أن يكون البعض أحرار على حساب البعض الأخر وبالتالي فهي حرية مزيفة، وهنا تكمن المفارقة في أنه " يوجد غموض في عرضي في الحرية في شكلها الحديث المقترن بالرأسمالية، تطلب فاعلية الحرية أن يبقى بعض الناس الآخرين غير أحرار، وأن تكون قادرا على ذلك وهكذا فالحرية في حداثتها شكل محدود إقتصاديا لا يختلف عن ما قبل تطبيقاتها الحديثة فيما يتعلق بمضمون علاقتها الاجتماعية، أن تكون كما كانت من قبل إنتقائية، وربما هي تتحقق بشكل صحيح عند جزء من المجتمع فقط إنها تشكل احد القطبين في العلاقة التي قاعدتها نظامها المعياري والإجبار والتقييد

[1] – زيجمونت باومان:**الحرية السائلة**، مصدر سابق 55.

[2] – المصدر نفسه، ص ص 56 –57.

قطبها الأخر"[1]وهذا ما تعنيه الحرية الإقتصادية ، أما الحرية الاجتماعية أو الحرية بمفهومها الأخلاقي، فهي تفرض أن الإنسان بإستطاعته أن يختار الخير والشر، و بالتالي يستطيع أن يختار ، ولذا فهو كائن مسؤول عن إختياراته ، فلا يجب أن تقوم بالفعل ثم تتهم الإله بأنه فرض عليك القيام بالفعل، فالله بريء والناس هم المسؤولون عن إختيارهم الحر، وهذا المفهوم الأخلاقي للحرية هو الذي يرتبط بالإنسان وإرادته ومصيره، إذ يتوفر عليه إختياره بين الخير والشر، وتحمل المسؤولية، يقول باومان في ذلك :" وفقا لبيلاجوس" جعل الله الناس أحراراً "ولكونه جعلهم هكذا فإن الناس تستطيع الاختيار بين الخير و الشر ووفقا لإرادتهم، إنه أيقظهم ليعيشوا من أجل خلاصهم أو هلاكهم ولكنهم أصبحوا أحراراً ووهم الإرادة الحرة.

وبذلك وضع الله مصير الإنسان في أيديهم وقرر رفض كل قوة فوق سلوكهم وبالتفويض أو بالوكالة "[2] وعليه لا يمكن تصور إنسان حر إلا في مجتمع حر ، هذه الحرية التي يتكلم عنها باومان هي الحرية الإنسانية التي يستطيع من خلالها الإنسان أن يكون مسؤولا وقادرا على الإختيار ، لهذا نجده يقدم نقدا للحرية في المجتمع اللبيرالي و حتى الإشتراكي، ولقد أدت هذه الحرية الحداثة السائلة الى مجتمع مفتوح كما أثرت في الإنسان و سلوكاته، وفي المجتمع وقيمه و ظواهره، فيعد الغزو العلمي وتحولات الحداثة ظهر الإنسان الحداثي الجديد وتغيرت سلوكياته بتغيير أفكاره التي فرضتها عليه العولمة والحداثة.

[1]– المصدر نفسه، ص 80.

[2]– المصدر نفسه، ص 93.

الفصل الثالث: القيمة الايستمولوجية لفكرة السيولة عند باومان.

1- مقترحات لمفهوم السيولة عند باومان.

1-1- في إسقاطات السيولة عند باومان.

1-2 - المقدس كخلاص من موجة السيولة.

2- رؤية نقدية لنظرية السيولة عند باومان.

2-1- مشروع باومان في ميزان النقد.

1- مقترحات لمفهوم السيولة عند باومان

لقد خلفت الحداثة لدى الإنسان شعورا بالقلق والخوف بخصوص القيم والذات والمجتمع والحياة ، بل وإنسانيته الضائعة ، و لهذا نجد الكثير من الفلاسفة الذين دافعوا عن المشروع الحداثي يتراجعون لما لاحظوه من إنحراف للحداثة التي تريد أن تلتهم الإنسان في كل أبعاده ففكروا في مشاريع تنتقد الإنسان من نزعته الإستهلاكية المدمرة التي زرعتها الليبرالية الجديدة، وتعيد إليه القيم المفقودة وتنتشله من الاستلاب والإغتراب ، ومن هؤلاء، زيجمونت باومان الذي أدرك أن الإنسان أصبح غريب عن وطنه وذاته ومجتمعه فلابد من العودة الى الذات والإنسان بكل أبعاده خاصة القيمية والاخلاقية في ظل عولمة حكمت يتصدع الدين وإلغاء كل الفوارق بين الأمم والثقافات والحضارات في محاولة لفرض نمط واحد متجاهلة التعدد والتنوع والاختلاف بين الشعوب والأمم اننا بقدر ما نعيش عصر النهايات بقدر ما نشهد ولاده تاريخ وانسان ومجتمع جديد لذلك وجه باومان النقد لكل معطيات الحداثة ليكتشف أن الحداثة غير المفاهيم والمقولات الصلبة لتصبح سائلة، فظهر الخوف السائل والحب السائل، والأخلاق السائلة، والثقافة السائلة وغيرها تماشيا مع معطيات الحداثة السائلة التي يقول عنها باومان" فقد تحولت فكرة التقدم إلى واقع مرير وجبرية متطرفة بعدما كانت أبرز تجليات التفاؤل والأمل كبيرة لتحقيق السعادة الملائمة للجميع ، فصارت ترمز إلى تهديد دائم وحتمي لا يبشر بالراحة ولا السكينة ، بل يتذكر بالشدة والمشقة الدائمتين ويمنع أية لحظة للراحة .. فلم تعد فكرة التقدم توحي بالأمال الكبرى والأحلام الجميلة ، بل صارت تشير إلى معاناة من الأرق وكوابيس الخوف من التخلف عن ركب السائرين "[1] إن السؤال الذي أرق كثيرا باومان رغم إيمانه بأنه لا بد أن نعيش في هذا الواقع الذي فرضته العولمة والحداثة بكل معطياتها هو كيف تبدو الحياة السائلة في زمن الحداثة؟

[1]- زيجمونت باومان: **الأزمنة السائلة** ، مصدر سابق، ص 34.

و قبل ذلك ماذا نتج عن الحداثة السائلة من تمظهرات آلت إليه الإنسانية بعد انغماسها في زمن الحداثة ؟

1-1- في إسقاطات السيولة عند باومان :

أ. **في الحياة السائلة:** لقد تغير مفهوم الحياة ، حيث غيرت معطيات الحداثة والعولمة كثيرا من المقولات والمفاهيم فلم تعد الحياة هي العيش في أمان، ولم تعد هي البحث عن السعادة والرفاهية، بل في المقابل حياة مليئة بالخوف والقلق والاضطراب والإنتحار والموت والعنف والقتل و الارهاب، وأصول الأخلاق والقيم ، إنها إحدى أكبر نتائج السيولة الحداثية كما وصفها باومان "كلما تقدم المجتمع الحديث السائل ، تراجع بها الشهداء والأبطال الذين يجدون مأواهم الأخير في هذه الأيام بين الشعوب التي ما زالت تحارب ما يبدو لكثير من أهل الكوكب (ربما لأغلبهم) حربا ضد ظروف يشق تحملها، بل وحربا خاسرة بالفعل، إنها حرب ضد القوى العسكرية والمالية العولمية الرهيبة التي تحاصر الأراضي البكر الباقية حتى تغرس نموذج حياتها الجديدة إينما ذهبت ، وهي حياة تعني لمن يلقونها نهاية الحياة كما يعرفونها، بل وربما نهاية الحياة في حد ذاتها "[1] و إنها لنهاية مؤلمة يفقد فيها الانسان كل قيمه وسعادته. كما يقول هربرت ماركوز "(1898-1979) (Herbert Marcuse) إننا إذا أردنا أن نبني مجتمعا حديثاً فعلينا أن نضع في مشروعنا هذه الأبعاد بالموازاة مع معطيات الحداثة الصلبة ، لتنتقل الى حداثة سائلة ، تؤمن بالسعادة و التسامح بين الناس"[2] وكما وصفها باومان بقوله : " الحياة السائلة نحياها عادة في مجتمع حديث سائل، وهو مجتمع تتغير فيه الظروف التي يعيشها أعضاؤه بسرعة لا تسمح بإستقرار الأفعال في عادات وأعمال ... كما أن الحياة السائلة تماما مثل المجتمع الحديث السائل ، لا يمكن أن نحتفظ بشكلها ولا تظل على حالها طويلا ... إن الحياة السائلة حياة محفوفة بالمخاطر

[1]- المصدر نفسه، ص 75

[2]- محمد سبيلا: الحداثة **وبعد الحداثة**، مرجع سابق، ص 45.

يحياها المرء في حالة من اللايقين الدائم، وأشدها حبس يساور المرء في تلك الحياة هو الخوف من الفشل في اللحاق بالمستجدات المتسارعة"[1]

ونتيجة لمغريات الحياة السائلة في زمن الحداثة فإن باومان يؤكد أنه بقدر السعي وراء هذه الحياة، بقدر ما تزداد المخاطر ويزيد الخوف من المستقبل ومن زوال السعادة ، إننا أمام حياة حداثية تمتاز بالسرعة و التسارع، تضعنا مباشرة أمام مجتمع إستهلاكي لا يتوقف وبالتالي لا يمكن أنا نعيش هذه الحياة بعيدا عن الخوف وهو ما يؤكده باومان بقوله:" فليت حياتنا خالية من الخوف، والزمن الحديث السائل السائل الذي تعاش فيه حياتنا ليس خاليا من المخاطر والتهديدات بل إن الحياة بأسرها في هذا الزمن هي صراع طويل خاسر على الأرجح ضد إمكانية التأثير السلبي المحتمل للمخاوف ... باتت الحياة بحثا مستمرا وإختبارا دائما للسبل والأدوات التي تعيننا على منع وقوع الأخطار "[2] وبالتالي إنتشار العنف كمظهر من مظاهر السيولة.

ب. في العنف السائل : يعد العنف من الظواهر الاجتماعية التي ترتبط بالإنسان وحياته ولقد إرتبط بإستعمال القوة للحصول على شيء ما كما يقول علماء الاجتماع والفلاسفة كما أنه إرتبط بالدولة والسلطة والسياسة وعليه يفرق العلماء والفلاسفة بين العنف الغريزي الذي نجده عند الحيوانات وحتى عند الإنسان، بمعناه الاجتماعي والسياسي ومن الفلاسفة الذين اهتموا بالعنف نجد الفيلسوف الألماني ماكس فيبر (Maximiliancarl Emil weber) (1864-1920) وحنة أرندت (1906 -1975)(Hannah Arendt)

و باعتبار الانسان كائن إجتماعي بطبعه، يميل الى الغريزة حب السيطرة والتملك، فإنه يمارس العنف لتحقيق ذلك لكن نظرا لتطور المجتمعات وظهور الدولة والقانون، كما تعتقد نظرية العقد الاجتماعي فقد إحتكرت الدولة هذا العنف لصالحها من أجل فرض النظام و من

[1]- زيجمونت باومان: **الأزمنة السائلة** ، ص 57.

[2]- زيجمونت باومان : **الحرية السائلة** ، مصدر سابق ص ص 59- 60.

أجل تحقيق العدالة بين الناس، وإلا فإنه يتحول إلى عنف مضاد وهذا ربما ما أسماه باومان بالعنف الصلب وهو ليس خطر على الفرد والمجتمع فقط، بل حق على وجود الدولة ذاتها" وإذا فقدت الدواء إحتكارها للقهر الذي اعتبره ماكس فيبرأبرز سمة للعقلانية و النظام المتحضر، فإن ذلك لا يعني بالضرورة أن المحطة النهائية للعنف، بما في ذلك الصنف الذي ربما يؤدي إلى الإبادة ستنخفض، فالعنف ربما يتحرر من القيود والضوابط فينزل من مستوى الدولة إلى مستوى الجماعات " [1]وقد يكون العنف بين الأفراد و الجماعات و الدول.

إنه ضرورة لتطور وتغير التاريخ، كما يرى جورج سوريل (Georger Eugéne Sorel) (1847-1922) و حنة أرندت وفريدريك هيجل وكثير من المفكرين ، حيث يميز الكثير منهم بين العنف المشروع وغير المشروع ،العنف البناء والعنف الهدام ،العنف المادي والرمزي ، كما يرى هاربرت ماركوز و بيار بورديو وهو ما يستند إليه باومان في الحديث عن العنف السائل في المجتمعات، كما يستشهد بالمفكر رينيه جيرار(Girard Renel) (1923-2015)عندما يقول "طرح رينيه جيرار نظرية شاملة لدور العنف في ميلاد الجماعة البشرية وبقائها فثمة رغبة عنيفة هائجة على الدوام تحث السطح الهادئ الذي يسودة التعاون السلمي الودود، وهذه الرغبة تحتاج الى تنفيس خارج حدود الجماعة حق تستأصل جزيرة الأمان الجماعي ، تلك الجزيرة التي يحظر فيها العنف، ومن ثم فإن العنف الذي يطالب بدليل على صرف الوحدة الجماعية، يعاد تدويره سلاحا للدفاع الجماعي ، وفي هذا الشكل الذي أعيد تدويره يصير العنف شرطا لا غنى عنه ... إنه العنف الداخلي أي ما بين الجماعة الواحدة من خلافات "[2]، وهو العنف الذي أصبحت تمارسه أكثر الجماعات الأثنية لتوكيد هويتها وإنتمائها، وربما هو عنف خطير لأن إمتداداته ستكون مدمرة للفرد والجماعة والدولة، وهذا العنف وصفه باومان بالخطير لأنه يستمد وجوده وبقائه وقوته من

[1]- زيجمونت باومان : **الحداثة السائلة** ، مصدر سابق، ص 269 .

[2]- المصدر نفسه، ص 270.

ذاته وهنا يعود ليستشهد برينيه جيرار ليقول:"إقتربت نظرية جيرار كثيرا من إدراك العنف المنتشر والمستفعل في جهات الجماعات التي شهد تنافسا و نزاعا حادين لا سيما الجماعات التي مازالت هوايتها محل نزاع و خلاف أو لنكن أكثر دقة إدراك الاستخدام السائل للعنف بإعتباره أداة لرسم الحدود عندما تغيب الحدود "[1].

حقيقة لقد تجاوز باومان الطرح الكلاسيكي للعنف الذي يهدد الحياة و الذي تحدث عنه الفلاسفة وعلماء الاجتماع ليضع مفهوم جديد للعنف ، متأثرا أكثر بتحولات الحداثة والحياة السائلة التي فرضتها هذه الحداثة .

و هنا نجده يؤكد على هذه الأفكار بقوله: " لا سبيل إلى تحقيق العدالة ولا ضمانها باعتبارها الشرط الأساسي للسلام الدائم، فالإنفتاح الفاسد للمجتمعات بفعل العولمة السلبية هو نفسه السبب الرئيسي للظلم ومن ثم فهو بطريقة غير مباشرة السبب الرئيسي للصراع والصنف"[2]، ومع هذا التحول في العنف الذي أصبح يأخذ أشكالاً وأنواعا في الحياة السائلة للمجتمعات ، وربما تطور لتصبح إرهابا إزداد الخوف والشعور بالا أمن في مجتمعات الحداثة وكيف ساهمت الحداثة بتحولاتها في ظهور الخوف السائل ؟ وما علاقة الخوف بالمراقبة ؟ ولماذا هذا الشعور الرهيب بالا أمن في زمن الحداثة.

ج. في الخوف السائل : وفي نظرنا لا يوجد عالم أو فيلسوف حلل ظاهرة الخوف والا أمن مثل زيجمونت باومان حيث بين كيف تغيرت هذه الظاهرة من الصلابة إلى السيولة، نعم هناك من حلل الظاهرة من الجانب النفسي كسيقموند فرويد

(Sigmmund Freud)(1939-1856)

ومن الجانب الفيلسوف جان بول سارتر 1905-1980)(Jean-Paul Sartre)

[1]- المصدر نفسه، ص 271.

[2]- المصدر نفسه، ص 136.

ومن الجانب الإجتماعي إميل دوركاين–1917) (David Émil Durkhein) 1858)

وغيرهم وهذا ما يسميه زيجمونت باومان بالتحليل الصلب الظاهرة الخوف واللاأمن الذي يركز على الخوف الطبيعي الغريزي وحتى الاجتماعي ، أما الخوف اليوم الذي نشأ نتيجة تحولات الحداثة وظهور المجتمعات الحداثية وما بعد الحداثية ، مجتمعات الاستهلاك، فهو خوف سائل" لا شك أن العولمة أصبحت الأن حتمية وفي مسار يستحيل عكسه، لقد تم الوصول الى نقطة اللاعودة وتم تجاوزها ، إن علاقتنا فيما بيننا واعتمادنا على بعض صار عالميا، كل ما يحدث في مكان يؤثر على حياة الناس وفرصهم في العيش في مكان آخر حسب الخطوات التي تتخذ في مكان ما، يجب أن يأخذ بعين الاعتبار ردود الفعل في مكان آخر ، لا حدود سياسية مهما كثرت أو كثر سكانها وإمكاناتها تستطيع بمفردها أن تحمي ظروفها المعيشية ، أو أمن سكانها إعتماد بعضنا على بعض يحدث على إمتداد الكرة الأرضية "[1]

إنه زمن اللاأمن الذي فرضته الحداثة الغربية بمنطقها التداولي ، فعن ماذا يبحث الإنسان الحداثي العولمي؟ يتسائل باومان ، هل على الرفاهية والوفرة ؟ هل على السيادة والسلطة التي جعلته يوما يعتقد أنه سيصبح إلاها ؟ هل يسعى وراء المادة والإستهلاك بعيدا عن قيمه الروحية والأخلاقية، ماذا قدم له التطور؟ إن أضعف مخلوق يمكن أن يشعر الانسان بالخوف، بل وبالرهاب وهو أعلى درجات الخوف إن أدق جرثومة أو مكروب يمكن أن يقضي على الإنسان ويشعره بالخوف الرهيب كما يحدث مع فيروس كرونا ، لقد عرت هذه الأمراض الإنسان من كل أبعاده وقيمه، لقد كشفت عن حقيقته الإنسانية وضعفه أمام أضعف المخلوقات كما بينت أن العصرية والتباهي بالتطور والتقدم العلمي والطبي لم يصل إلى الحد الذي يشعر الانسان بالأمان والقوة والسيطرة ، لقد أيقظت هذه الأمراض والمشاكل

[1]– زيجمونت باومان: **الأخلاق في عصر الحداثة السائلة**، مصدر سابق، ص 46.

الاجتماعية الجديدة الإنسان من سباته، كما دفعت الانسان لأن يفكر أكثر في بشريته وجنسه ويبتعد عن الأنانية والغطرسة ، و كشفت عن الوجه القبيح للعولمة والامبريالية والليبرالية المتوحشة، وأعادت طرح أسئلة العلاقة بين الإنسان وذاته وبين الإنسان وغيره، والإنسان وأخلاقه ، فيما سمي بالبيواطيقا، وبين الانسان وخالقه، وبين الإنسان وبيئته وعقله وعمله ... إلخ إن الخوف واللا أمن جعلا الإنسان يعيد حساباته ، كما يقول باومان: " إن الأمان مو عنوان اللعبة في عالم غير آمن، فالأمان هو الغاية الرئيسية من اللعبة ومكافأتها الأسمى إنه قيمة تقزم عمليا إن لم يكن نظريا وتدفع كل القيم الأخرى بما فيها تلك القيم الأحب والأكثر بغضنا لديهم ، ولهذا السبب أفصحوا عن السبب الرئيس لرغبتهم بإيذائنا في عالم متزعزع كعالمنا "[1] وهذا يعني أن الحداثة بعثت الى إنتاج وضع بشري متأزم وإنسان حديث يفتقد الى القيم الجمالية والخير والحب والسلام ، لقد اعلنت الحرب على الانسان بما أنتجته من مغريات ومعطيات ، لقد تجاوزت إنتاج الأسلحة النووية الفتاكة إلى إنتاج إنسان مدمر، وإلى إنتاج أسلحة دمار شامل لكل الشعوب والأمم ،إن السلاح البيولوجي الذي لا يمير بين الشر ولا يمكن التحكم فيه، وهذا ما زاد من خوف الإنسان وشعوره باللا أمن ، يقول باومان في ذلك :" فما أن يحل الخوف بالعالم الإنساني، فإنه يكتسب قوته الذاتية الدافعة ، ولا يتطلب منطق تطوره اهتمام يذكر، وقلما يحتاج لأي إستثمار إضافي حتى ينمو وينتشر، بل لا يمكن إيقافه ، فالخوف من الخطر ليس الطامة الكبرى، بل إمتداده وتحوله، فالحياة الاجتماعية تتغير عندما يعيش الناس خلف الأسوار ويستأجرون الحراس ويقودون سيارات مصفحة ويحملون الأسلحة و يحضرون دورات تدريبية في فنون القتال، وتكمن المشكلة في أن هذه الاحتياطات "تعيد تأكيد الشعور بالخلل، بل إنها تساعد على توليد هذا الشعور"[2] هذا الخوف السائل أصبح جزء من حياتنا اليومية، إنه يتبعنا في كل لحظة من لحظات حياتنا

[1]– زيجمونت باومان : **الخوف السائل** ، مصدر سابق، ص 31.

[2] – زيجمونت باومان : **الأخلاق في عصر الحداثة السائلة** ، مصدر سابق ص46.

في الشارع وفي البيت وفي محلات البيع، و مطاعم الوجبات السريعة ، إننا نخاف أن نلمس شيء فيه جراثيم فتاكة وفيروسات قاتلة ، إننا نخاف أن نأكل وجبات سريعة بها مواد مضافة تسبب سرطانات بكل أنواعها ، أصبحنا نخاف أن نصافح أو نعانق، أصبحنا نخاف من الإشعاعات في الهواتف الذكية والتلفزيونات ، وأجهزة الكومبيوتر ومواقع التواصل الاجتماعي أصبحنا نخاف حتى من الهواء الذي نتنفسه، إنه الخوف السائل بل الرهاب الذي فرضته العولمة والحداثة على الإنسان الذي أنتجها باحثا عن السعادة والرفاه والأمن و هكذا" تدفعنا المخاوف الى القيام بفعل دفاعي وعند القيام به فإنه يحول الخوف إلى وجود مباشر ملموس فاستجاباتنا هي التي تعيد صياغة الهواجس المخيفة باعتبارها واقعا يوميا يجسد كلمة الخوف المجرد ، فلقد استقر الخوف الأن بالداخل وهو يتسرب إلى أنشطتنا اليومية المعتادة، وقلما يحتاج الى مثيرات أخرى من الخارج فالأفعال التي يولدها يوما بعد يوم مستمدة بكل الدافعية والطاقة التي يحتاجها لإعادة توليد نفسه ، وربما يكون التوليد الذاتي لفخاخ الخوف والأفعال المنبعثة من الخوف هو أهم الآليات المتنافسة على الاقتراب من النموذج المثالي للآلية الخيالية التي لا تتوقف أبداً ما إن تبدأ حركتها"[1] وهنا نجد زيجمونت باومان بعقلية عالم الاجتماع المتمرس والفيلسوف المفكر والمحلل لهذه الظاهرة وفقا لمعطيات الحداثة و يقوم بتشريح هذا الواقع المخيف المرعب عندما يقول:" وهكذا ننشغل بتحديد العلامات السبع للسرطان ، والأعراض الخمسة للاكتئاب أو ننهمك في طرد الروح الشريرة التي يمثلها كل من ضغط الدم المرتفع ، وزيادة نسبة الكولسترول والتوتر والسمنة، إننا نبحث عن أهداف بديلة حتى نفرغ فيها فائض الخوف الذي لا يجد منافذ طبيعية ... فكل قفل إضافي نضعه على باب الدخول بسبب الشائعات المتوالية عن المجرمين وكل تعديل للنظام الغذائي...

[1] – المصدر نفس من ص ص 319-320

يجعل العالم أكثر إثارة للهلع وقد يزيد الناس تحفز للدفاع والإحتراس وهذا يزيد للأسف من القدرة على التوليدية الذاتية للخوف"[1].

والأكثر من ذلك لاحظ باومان أن هذا الخوف واللا أمن اليوم أصبح يدر أموالا طائلة على الشركات العملاقة التي أبدعت في إنتاج كل ما يطلبه الإنسان لمحاربة خوفه، والأموال التي يستفيد منها تعيد بها إنتاج الخوف من جديدحتى تستمر في البيع و الإنتاج و الأرباح ولقد أطلق باومان على أموالها رأس مال الخوف، وهنا يقول : " فالخوف موجود وهو يتسرب إلى الوجود الإنساني اليومي، بينما يتوغل الاقتصاد الحر في أساساته وتتداعى الحصون الدفاعية للمجتمع المدني فالخوف موجود ويبدو أن وفرته لاتنتهي ... واقع الأمر أن إستغلال رأس مال الخوف أمر ثابت تماما بل هو تقليد يعود إلى السنوات الأولى للهجوم الليبرالي الجديد على الدولة الاجتماعية "[2]. كما يؤكد باومان أن الخوف هو السبب في إنتشار ظاهرة العنف و الإرهاب سواء الداخلي أو الدولي و منها الحروب ولقد أكد أن بعض الحروب كان سببها الخوف من الإرهاب ، كما حدث في العراق وأفغانستان، وبالمقابل يرى باومان أن المجتمعات والأمم لم تعد تتحكم في الحاضر، وهذا هو السبب الرئيس لخوفها من المستقبل، لقد أضلت الحاضر بما أحدثته العولمة من تسارع رهيب في نقل التكنولوجيا والمعلومات ورؤوس الأموال، مما جعل المستقبل غير واضح أمام البشرية، وهذا ما يولد الخوف بصفة عامة ، وضبابية مفرطة لقد "ولدت المخاوف ذات الطابع الحديث في أثناء الجولة الأولى من تحرير السوق و سيرورة النزعة الفردية، في وقت إنفكت أو تقطعت فيه روابط القرابة والجيرة روابط كانت متينة تعتصم بحبل الجماعة والتقة، روابط كانت أبدية لكنها عاشت على أي حال منذ زمن بعيد ، فكان النموذج الحديث الصلب لارادة الخوف يميل إلى إحلال الروابط المصنوعة محل الروابط الطبيعية التي دمرت تماما، واشتملت هذه

[1]– زيجمونت باومان : **الأزمنة السائلة** ، مصدر سابق ص 33.

[2]– المصدر نفسه، ص 40.

الروابط المصنوعة النقابات والإتحادات والكيانات الجمعية ... كان أصول ذلك التضامن ينذر بنهاية النموذج الحديث الصلب لإرادة الخوف"[1] لقد إفتقد الإنسان المعاصر لتلك الروابط التي تشعره بالأخوة والمحبة والتسامح ، حيث كان لا يأبه للأمور الاحترازية في بنيته ومجتمعه وحتى عمله لكن التحولات الحداثية جعلت الخوف ملازم للإنسان كضله ، فإفتقد للسعادة وللعلاقات الإنسانية وتفككت الروابط و ذابت القيم" إن المجتمع الحديث السائل هو أداة تحاول أن تهون من صعوبة الحياة مع الخوف ، فإذا كانت الحداثة الصلبة قد إعتادت أن تغزو المخاوف واحد تلو الأخر، فإن الحداثة السائلة تكشف الأنا أن الصراع ضد المخاوف هو مهمة مدى الحياة "[2] ومنه كيف لنا أن نواجه تحولات الحداثة، كيف يمكن زرع بذرة الأمل ، كيف يمكن إصلاح الوضع الإنساني المأزوم الذي أوجدته الحداثة؟ كيف يمكن أن نخرج من زمن الحداثة الى ما بعد الحداثة ؟ يعتقد باومان أنه على الثقافة هي الأخرى أن تعيد التفكير والتأسيس والبناء، عليها أن تصبح أكثر سيولة لمراجعة كل ما أنتجته الحداثة ، فها هو دور الثقافة في تحولات الصراحة ؟

د. في الثقافة السائلة: إن للثقافة دور أساسي في الرقي بالفكر والحضارة،

بل إنها ضمير الحضارة ووسيلة للتغيير، ولا يمكن أن تقوم بدور إلا إذا تجاوزت المفهوم الصلب ، عليها أن تتعامل مع كل المعطيات العديدة للحداثة، عليها أن تعيد النظر في مبادئها وأسسها، من هنا كان لابد أن تقوم بدورها في المجتمعات والحضارة ، كما فعلت بالامس عندما كانت طريقا لفعل التنوير والدخول الى زمن الحداثة، يقول باومان عن الثقافة:" وكان الغرض من الثقافة وفق مفهومها الأصلي أن تكون عاملا للتغيير، وليس عاملاً للحفاظ على الوضع القائم، فكان المطلوب منها أن تكون وسيلة لقيادة التطور الاجتماعي نحو وضع إنساني عالمي، ولم يكن الفرض الأصلي لمفهوم الثقافة توظفها

[1]– المصدر نفسه، ص 86.

[2]– زيجمونت باومان و ديفيد ليون: **المراقبة السائلة** ، مصدر سابق، ص 107.

كدفتر يختص بتسجيل توصيات الموقف السائد ولا سرد قائمة بالأشياء التي يحتويها، ولا جمع قوانينه و تصنيفها، بل تحديد هدف الجهود المستقبلية ووجهتها"[1]

يجب أن تعيد الثقافة في زمن الحداثة النظر في ماهيتها و مهامها ووظيفتها علم تعد تقتصر على التنوير ونقل العلم فقط ، وتحسين سلوك وعادات الناس وأعرافهم، بل لا بد من إعادة تشكيلها من منظور جديد، إنه منظور الحداثة السائلة" ففي الأزمنة الحديثة السائلة تتشكل الثقافة .. بما يلائم الحرية الفردية للإختيار والمسؤولية الفردية عن ذلك الإختيار وتتمثل وظيفتها في البقاء الدائم على هذا الإختيار ضرورة حياة وواجبا مختوما، مع الابقاء مسؤولية الإختيار وعواقبها، حيث وضعتها الأزمنة الحديثة السائلة"[2]

ان فعل التنوير والتحديث هو الفعل الذي أنيط به للثقافة في زمن ما قبل الحداثة، لكن اليوم لم تعد تقوم بهذا الفعل، بل لقد تغيرت مهامها إنها اليوم تتماشى والحداثة السائلة لتصبح هي بدورها ثقافة سائلة .

وعلى حد قول باومان: ليست لثقافة الحداثة السائلة من شعب تنيره و ترتقي به، ولكن لها زبائنا تغريهم فالإغراء، على العكس من التنوير والارتقاء بالنفس، ليس مهمة واحدة ومنفصلة يقوم بها المرء مرة وللأبد، بل هو نشاط مفتوح لا نهاية له. فليست وظيفة الثقافة هي إشباع الحاجات القائمة ، بل خلق حاجات جديدة بنيتها تحافظ على الحاجات المترسخة بالفعل أو غير المتحققة على الدوام "[3]، وكذلك على المثقفين أن يعيدوا تشكيل ثقافتهم و مفاهيمهم وفقا لتحولات الحداثة، حتى يناقشوا وينشغلوا بكل ما تطرحه الحداثة من متغيرات ومن مفاهيم سائلة، لم تعد الرتابة و النمذجة والنمطية. قادرة على تفسيرها وتفكيكها ، عليهم أن ينتقوا من فعل التعليم والتنوير وحفظ قيم المواطنة، إلى فعل التفكيك والتحليل والتبرير وإيجاد إنسان جديد ، إنسان حداثي يستطيع أن يتأقلم مع كل التغيرات في حياته، يحمل

[1]– زيجمونت باومان : **الثقافة السائلة** ، مصدر سابق، ص 15.

[2]– المصدر نفسه، ص20.

[3]– المصدر نفسه، ص 36 .

ثقافة سائلة قابلة للتشكل في أي لحظة من لحظات الزمن السائل بعيدا عن الصلابة والتراتبية في المفاهيم والقيم والأخلاق وعليه فالثقافة السائلة بالمفهوم الجديد آمنت بالقدرة على التغيير، وإذابة المفاهيم القديمة التي كانت في غالب الاحيان عائقا أمام التطور كما أمنت بالعالمية و ليس المحلية و الخصوصية، و أعلنت أن التحديث طريق للتقدم فلا بد من إعادة تحديث كل المفاهيم والقيم.

هـ. في الاخلاق السائلة :عرفت مرحلة الحداثة تغيرات هامة في مجال الحياة العامة ومست هذه التغيرات الجذرية ملامح الحياة الاجتماعية بشكل واسع، فكانت الحياة الأخلاقية من أبرز تلك المظاهر التي جعلت الحداثة الغربية تقوم على ركيزة أساسية وهي مبدأ فصل الأخلاق عن الحياة ، حيث لم تعد المنظومة الأخلاقية تتحكم فيها معايير الأخلاقية التي كانت في السابق، و بذلك أصبحت الأخلاق تتحكم فيها الذاتية الفردية التي تعتبر من أهم المبادئ التي إنطلقت منها الحداثة الغربية، خاصة عندما أعلنت الحرب على كل ما هو مقدس و سماوي. وهذا ما يؤكده باومان في كتابه الحب السائل فيقول : إنه إنسان بلا صفات، إنسان الحداثة الباكرة الذي نضج حتى أصبح إنسان بلا روابط "[1]

و يشير زيجمونت باومان في كتابه الحداثة السائلة إلى تلك التجربة التي انطلقت منها الحداثة الغربية الصلبة وذلك من خلال تجاوز الحمل الثقيل الذي كان على عاتق الإنسان الأوروبي بشكل خاص، فيقول في هذا الصدد:" فعندما أرادت الحداثة أن تشرع بجدية في بناء نظام جديد (صلب بمعنى الكلمة) كان لازما عليها أن تتخلص من الحمل الثقيل الذي وضعه النظام البائد على كاهل البنائين ، كانت إذابة المواد الصلبة " تعني قبل كل شيء إسقاط الالتزامات " عفى منها الزمان "، وتقف في طريق الحساب العقلاني للنتائج ، أو كما يقول ماكس فيبر: "تحرير المبادرة والاقدام من قيود الواجبات العائلية ومن النسيج الكثيف

[1]– زيجمونت باومان : **الحب السائل** ، مصدر سابق، ص 109.

الذي يميز الإلتزامات الأخلاقية "[1]، وهذا دليل قاطع على أن الحداثة الغربية الصلبة في بدايتها كانت معركتها الأولى هي إذابة كل الأفكار القديمة البالية التي لا تتماشى مع العقلانية باعتبارها الحاكم والمشرع للإنسان الحديث الصلب ، ويشير في ذات السياق أن من بين المواد الصلبة، التي حاولت الحداثة الصلبة القضاء عليها هي نزع وترك كل المقدسات فقامت بتدنيس كل مقدس و هذا ما يوضحه في هذه العبارة : "كانت أولى المواد الصلبة التي قررت الحداثة إذابتها أولى المقدسات التي قامت بتدنيسها ، تتمثل في الولايات التقليدية والواجبات والحقوق المعهودة التي تلغي الأبدي ، وتقيد الأرجل وتعوق الحركة، وتكبح زمام المبادرة والإقدام" [2]

ويشير زيجمونت باومان إلى أن العدائية المفرطة التي شنتها الحداثة الغربية على كل الأسس والمعايير السابقة في كل المجالات الأخلاقية بشكل خاص فيقول في هذا الصدد: " حققت الحضارة الحديثة نجاحاً فاضحا في إحلالها للمعايير العقلانية محل كافة كل المعايير الأخرى. باعتبارها معايير لا عقلانية " وفق التعريف الحديث ، باعتبار أن أهمية الحكم الأخلاقي تتضخم بين المعايير اللاعقلانية، هذا النجاح الفاضح. كان يحكمه بشكل قاطع التقدم في "التحكم عن بعد" ، أي التقدم في توسيع المسافة التي يكون عليها الفعل البشري قادرعلى إحداث تغيرات واضحة، فالأهداف البعيدة والتي يصعب رؤيتها لا تخضع للحكم الأخلاقي... " [3]

هذه المفارقة تكمن في أن الإنسان الغربي نفسه لم يسلم من هذه الرؤية المادية ، وبدأت الحداثة الغربية تصنف جميع أفراد المجتمع ولا سيما أعضاء الأقليات ، إلى مواد بشرية نافعة (العمال) وغير نافعة (المجرمون، المعوقون والمسنون) من أجل إستئصال كل

[1]– زيجمونت باومان : **الحداثة السائلة** ، مصدر سابق، ص 44.

[2]– المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[3]– حجاج أبو جبر، **المقاربة المجازية للحداثة الغربية**، في كتابات عبد الوهاب المسيري و زيجمونت باومان ، ضمن كتاب جماعي (عبد الوهاب المسيري في عيون أصدقائه ونقاده) ، دار الفكر، دمشق، سوريا ،ط1 ، 2008 ، ص 289

ما هو غير نافع أو ضار بالمدينة الفاضلة المادية اليوتبيوبيا التكنوقراطية) التي لا يعيش فيها سوى الإنسان المثالي (الانسان الآلي) وهو إنسان يتمتع بأعلى درجات الدقة والانضباط والتنظيم تماما مثل النحل والنمل والحيوانات الأخرى دون الاهتمام بالقضايا الإنسانية الكبرى أو الأعباء الأخلاقية التي تميزه عن الطبيعة المادية المحظة (القوانين الاقتصادية وتكثيف الانتاج)، وبذلك إزداد بمركز الحداثة الغربية حول الكفاءة وتأثير الصفات البيولوجية والوراثية على إنتاج السلالات البشرية المنتجة و الفاعلة في المجتمع[1]

يربط زيجمونت باومان الإستهلاك بمرحلة الحداثة، الحداثة هي التي قدمت الكثير من الوعود للبشرية في مجالات مختلفة، لكن ما يطغى على تلك الوعود المادية التي تدعو إلى الحرية الاقتصادية التي تجسدت في الإستهلاك حيث أصبح الإنسان هدفه الأساسي هو إثبات ذاته عن طريق الإستهلاك وهذا ما يؤكده في أحد أهم النصوص التي كتبها وهو كتاب حالة الأزمة التي عالج فيها الحداثة بشكل وفير و أهم المخلفات التي نتجت عن تلك الوعود فيقول : "كان ذلك مثلا بديعا للحداثة ، الإستهلاك للجميع من دون إستثناء، ألم تكن هي تلك السعادة ؟ ألم يكن ذلك هو كل ما يتمناه المرء ، أن يمتلك ويشتري و أن يستهلك ما يريد بلاحدود، و بلا ذنب ؟ لقد أتت أخلاق العمل لتكافئ المستهلك الفاضل، الذي ينفق كل ما يكسبه لتقوية الاقتصاد الانتاجي والأسواق، وبهذه الطريقة استعدت النزعة الإستهلاكية لاكتساب المزيد من الأهمية فيما يتعلق بالإنتاج وأن يصبح في الحداثة المتأخرة البديل العظيم للعمل "[2] وقد أطلق زيجمونت باومان على الحداثة الغربية التي قامت بفصل والإلغاء الأخلاق تسمية الحداثة المنقطعة عن الأخلاق وهذا ما سمح ببناء أخلاق متعددة على حساب رغبات الذات وأهوائها المختلفة :" إن الثقافة الحديثة منقطعة الصلة عن الأخلاق

[1]– زيجمونت باومان: الحداثة والهولوكوست ، مصدر سابق ص 295.

[2]– زيجمونت باومان، كارلو برودلي: حالة الأزمنة، تر حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، لبنان، ط 1، 2019، ص 113

بمعنى أنها تتجه إلى إستئصال فكرة المسؤولية الأخلاقية الفردية من دون أن تأخذ المسؤولية الجمعية على محمل الجد"[1]

فقد تركت الأخلاق من دون قيود وأصبحت تتحكم فيها القوى البيولوجية والاجتماعية لخدمة أغراض معينة مختلفة.

يذهب زيجمونت باومان في "كتابه الشر السائل" أن منظومة الحداثة أفرزت خليفة جديدة تلغي كل المظاهر الأخلاقية في الحياة العامة، حيث يصبح كل ما هو غير أخلاقي، بأنه أخلاقي ، فأصبحت الخيانة والوعود الكاذبة صفات أخلاقية جديدة تكرس المقولة الميكيافلية " الغاية تبرر الوسيلة " فيقول في هذا الصدد:" ففي عالم تسوده الروابط الإنسانية المحطمة والوعود والكلمات المبالغ فيها ، لم تعد الخيانة مسألة صادمة، فعندما يغيب الاخلاص عن مركز شخصياتنا ويختفي كقوة جامعة لهوية الإنسان ، فإن الخيانة تصبح فضيلة اللحظة "[2]

1-2- العود بالمقدس كخلاص من موجة السيولة

إن الوضع المأزوم الذي آلت إليه الأوضاع ما بعد الحداثية أدى إلى إنشغال الفلاسفة و المفكرين على سؤال الأخلاق و أعادوا لها السيادة المركزية بعدما تعرضت في مواقف كثيرة للتهميش، ليكون عالم الاجتماع البريطاني الثقافة، البولندي الأصل زيجمونت باومان (1925-2017) من بين هؤلاء، حيث أعاد قراءة و مساءلة المنظومة الحداثية الغربية التي أسقطت ملف الأخلاق و آلت إلى رؤية مادية إختزالية، و بالتالي فقد دعا إلى عالم إنساني مشترك يرحب بإنسانية الإنسان ويحترم فيه القيم الأخلاقية اللامشروطة والمفعمة بخطاب المحبة والتعاون وبالتالي فهو يستحضر هنا أرث فلسفة الفيلسوف الفرنسي ايمانويل لفيناس

[1]- المصدر نفسه : الصفحة نفسها .

[2]- زيجمونت باومان و ليونيد اسدونسكيس : **الشر السائل (العيش مع اللابديل)**، الشبكة العربية الأبحاث والنشر، بيروت، لبنان ، ط 1 ، 2007 ، ص 175.

(Emmanuel Levinas 1995-1906) الأخلاقية إتيقا الغيرية ويعتبرها السبيل للخروج من موجة السيولة ومنه نطرح الإشكالات التالية: هل يمكن الحديث عن العود الأخلاقي في زمن الحداثة السائلة؟ هل يمكن اعتبار القيم الأخلاقية مخرج لموجة السيولة؟ كيف يمكننا قراءة إرث فلسفة ايمانويل لفنيانس الأخلاقية؟ وهل يمكن اعتبارها الملاذ الأخير لإنسان الحداثة السائلة؟[1]

إن أهم ركيزة اتكأ عليها باومان كثيرا في حديثه عن حقيقة ما بعد الحداثة أو الحداثة السائلة هي "الأخلاق" وهذا لما لها من قوة في خلق عالم إنساني يضمن فرصة العيش المشترك وعليه فقد دعا وشدد على ضرورة عودة سؤال الأخلاق وإعادة قراءته من جديد، لاعتبار أن إنسان الحداثة السائلة قد أجهض معناه وفكك كل مدلولاته المرتبطة بالميتافيزيقيا وقذف به في قبضة الصيرورة، وهنا تَكْمُنُ التحدي لزمن ما بعد الحداثة وهو تحدي يقتضي بعودة سؤال الأخلاق رسميا في الخطابات النظرية وتجسيده عمليا وبالتالي فإن "ما بعد الحداثة تتحدانا أن نكون أخلاقيين، فهي حداثة بلا أوهام"

ويذهب إلى أبعد من ذلك ويرى أنه إذا كان خطاب الحداثة في مراحله الأولى قد أنتج لنا رؤية عالمية زعمت أنها نزعت السحر عن العالم ومكنت إنسان الحداثة الصلبة من رؤية العالم رؤية واضحة علمية وميكانيكية، فإن هذه الرؤية قد انحرفت عن جادة الصواب وانتهت إلى أوهام حداثية، لذلك لابد لإنسان الحداثة السائلة أن يعيد النظر في الوضع ويستعيد رؤيته السحرية للعالم، فهي وحدها من تعطي للوجود معنا وعلى هذا الأساس يقول بأن ما بعد الولادة (الحداثة) تستلزم: "إعادة السحر" للعالم بعد صراع الحداثة الطويل لإحباطه " ، و

[1]– جدراوي عفاف، عبد الغاني بوالسكك ، **الأخلاق كأفق لعالم الحداثة السائلة:** زيجمونت باومان قارئا لإيمانويل لفيناس، مجلة المقدمة للدراسات الانسانية و الاجتماعية، المجلد 7، العدد 2 ، ديسمبر2022 ، ص 24.

هذا يعني إعادة ربط الأخلاق بالميتافيزيقا لتكون هنالك قيم أخلاقية مفعمة بالخطاب الروحاني.[1]

وعلى هذا النحو يغدو سؤال الأخلاق سؤال متجذر في أعماق الروح الإنسانية كونه يمثل في نظر الفيلسوف الفرنسي ايمانويل ليفيناس سؤال سابق على سؤال الأنطولوجيا لأن الأخلاق حسبه تشير إلى مستوى ميتافيزيقي لا يمكن للأنطولوجيا بلوغه ألا وهو الغيرية ومنه فأولوية الأخلاق تقوم على أولوية الآخر يقول في الصفحات الأخيرة من كتابه الأساس " الكلانية واللامتناهي" الأخلاق ليست فرعا من الفلسفة وإنما هي الفلسفة الأولى." [2]

وفي خضم هذا يتحدث باومان عن أخلاق المسؤولية في زمن "التحديات الجديدة للمسؤولية الكوكبية"، ففي ظل مجتمع المخاطر العالمي بتعبير أولريش بيك الذي أنهك العالم بتقلباته السريعة، يؤكد على وجود سياسات كوكبية على نحو حقيقي تتقاسم هم الإنسانية وتسير وفق منطق المسؤولية الكوكبية، التي تنطلق من مبدأ الاعتراف بأننا جميعا نشارك هذا الكوكب ولا شيء يحدث في الأرض إلا وقد يؤثر على المعمورة يقول باومان: "يتطلب مسؤولية كوكبية حقيقية الاعتراف بحقيقة أننا جميعا ممن يشاركون في الكوكب نعتمد بعضنا على بعض في حاضرنا ومستقبلنا، أن لا شيء مما نفعل أو نفشل في فعله لا تأثير له على قدر الباقين أنه ليس بإمكان أحد منا أن يبحث عن ملجأ خاص من العواصف التي ينطلق من أي جزء من الأرض ويجده."[3]

ومن هذا المنطلق يتم مناقشة كل الأضرار الجانبية التي تسببت فيها القوى الاقتصادية العالمية. والعمل على التخفيف من حدة الأزمات الراهنة، وهذا لا يكون إلا في ضوء إصلاح شامل لشبكة التفاعلات الإنسانية، وهذا ما أكد عليه باومان في قوله: "يجب أن يبرز منطق

[1] -Peter Beilharz، Zygmunt Bauman: **Dialectic of Modernity**، Cambridge: Polity press ، 2000 ،p 224.

[2]– إيمانويل ليفيناس، **الزمان والآخر**، ترجمة جلال بدلة، دار معابر للنشر والتوزيع، دمشق، 2014، ص 09.

[3]– زيجمونت باومان، **الحياة السائلة**، تر حجاج أبو جبر، بيروت الشبكة العربية، بيروت للأبحاث والترجمة، 2016 ص 49.

المسؤولية الكوكبية لمعالجة المشكلات ذات المنشأ العالمي بشكل مباشر وعلى مستواها إنّه ينبع من فرضية أن أي حلول ناجعة حقا للمشكلات الكوكبية يمكن العثور علها وجعلها فاعلة فقط من خلال إعادة مناقشة وإصلاح شبكة الروابط والتفاعلات العالمية ." [1]

ليركز زيجمونت باومان على أهمية المسؤولية وبيان دورها البارز في فترة ما بعد الحداثة إنما يدل على إيمانه العميق بمبدأ المسؤولية في تأطير الأخلاقيات الجديدة وتوجيه السلوك الإنساني لبناء عالم أفضل. وعلى هذا الأساس تغدو المسؤولية "حجر الزاوية في مشروعه الحاسم"، ثم إنّ هذه الأخلاقيات الجديدة إنّما يستلهمها من التأملات الليفناسية أين يظهر فيها متأثرا بشكل كبير بأخلاقيات إيمانويل ليفيناس ، لأن عالم ما بعد الحداثة يستلزم منا أن نكون أخلاقيين، وإلا وقعنا في نفس الأخطاء التاريخية التي وقعت فيها الحداثة الغربية ونقصد بذلك المذبحة التاريخية اللاأخلاقية الهولوكوست المحرفة، التي كانت نتيجة الصمم الأخلاقي الذي لازم إنسان الحداثة الصلبة ففي كتاب "الحداثة والمحرقة" يظهر باومان أن هنالك ارتباط وثيق بين الطغيان المظلم للثقافة الحداثية والهوس الحديث بالنظافة (التطهير)، والنظام خاصة عندما أصبح التناقض الثقافي مشكلة، وتحول القضاء عليه إلى مهمة" [2]

ولهذا يُعيد استصواب مسار الحداثة الغربية عن طريق تخليصها من أوهامها الزائدة وذلك بتركيزه على أخلاقيات جديدة تتبع من الشعور بالمسؤولية الأخلاقية فهي الضمان الوحيد لاستمرار إنسانية الإنسان التي تحترم الغريب، وتقدر الضعيف، وتغيث الملهوف وتساعد المتشرد والبائس وتتكافل مع المعوزين، باختصار تقدر الإنسان ولهذا فهو يرفض بشدة أن يعيد التاريخ نفس الجرم (الهولوكوست) في الأزمنة الحالية وحتى المستقبلية.

[1] −Pierre-Antoine Chardel، Zygmunt Bauman **Les illusions perdues de la Modernité**. CNRS Editions، Paris ،2013، p 84.

[2] −Tony Blackshaw، Zygmunt Buaman، **London/New York: Routledge**، 2005، p 43.

فإحياء إنسانية الإنسان يعني حضور الغيرية فينا والتي تجعلنا نستجيب لنداء الآخر وتحمل مسؤوليته بشكل مطلق، وهذا ما يعني كما يقول: "مصير الآخر يعتمد الآن علي ما أقوم به ووجودي مهم له عواقب على الآخر، إنه أكثر من مجرد شيء آخر" [1] ، وهذا ما أكد عليه زيجمونت باومان وأكد على أننا لا نفهم ذواتنا من دون نظرة الآخر واستجابته وتحمل مسؤوليته والاعتراف بوجوده داخل ذواتنا، وهو الأمر الذي يضفي على وجودنا قيمة ويعطي للحياة معناً.

وهكذا تكون المسؤولية هي "النداء" المغروس في أعماق الذات ويتردد صداها في البنية الداخلية للأنا، فنسمعها قبل أن ينطق ويعلن عنا الغير ويسمعنا إياها، يقول باومان: "أنا مسؤول عن الآخر مهما فعل الآخر، فأنا مسؤول قبل أن يفعل أي شيء على الإطلاق، قبل أن أدرك أنه يفعل أي شيء في الواقع لقدرته لفعل شيء ما (...)، فأنا مسؤول قبل أن أبرز مسؤوليتي ."

إذن فالتنصل من الأخلاق أدى إلى مجازر ووقوع أحداث عنف في حق الإنسانية، لذلك تمخضت فلسفة ايمانويل لفيناس الأخلاقية كمحاولة منه لرد الاعتبار لإنسانية الإنسان وإعادة بعث قدسيته من جديد، ورفض كل ما يخدش الكرامة الإنسانية أو يتطاول على أي حق من حقوقه، وهذه الرؤية التي تبناها باومان وأنهى بها مساره الفكري، وجعلته يتحول في آخر حياته إلى فيلسوف أخلاقي بالدرجة الأولى، لأن مقتضيات الحداثة السائلة تفرض العودة إلى القيم الأخلاقية لوضع حد للأنانية المفرطة والنزعة الفردية التي جعلت الذات مكتفية بنفسها.

و بناءًا على ما سبق فالحديث عن القيم هو حديث عن الانسان كما يقول زكي نجيب "لأنها تقوم في نفس الانسان بالدور الذي يقوم به الرُّبان في السفينة " [2] و عليه فغياب القيم الأخلاقية و الجمالية في المنظومة الغربية أدّى إلى العدمية التّي مّزت حال الإنسان المعاصر و جعلت باومان يفكر في الوضع الذي آل إليه الإنسان و كيفية إستعادة كرامة

[1] –Zygmunt Bauman، **Mortality Immortality and Life Strategies**، Cambridge: Polity press ، 1992، p 76.

[2] – بو الشعير عبد العزيز، **النظام المعرفي بين الفكرين الإسلامي والغربي**، منتدى المعارف : بيروت، ط1، 2014، ص 439.

الإنسان من اللصوص و المحتالين الّذين يخطّطون لسرقتها و تشويهها فلا بـُدّ من تغيير عادات العالم و جعل البيئة البشرية أكثر ترحيبا بالكرامة الإنسانية "فلا امتهان الكرامة الانسانية و لا انكارها يمكن أن يكون الثمن بل أن الحياة الكريمة و الإحترام الواجب لإنسانية كل إنسان يشكلان معا قيمة عُليا لا يمكن وزنها أو تعويضها بأي ثمن ولا قيمة أخرى، و لكن القيم الأخرى كافة هي قيم بشرط أن تخدم الكرامة الإنسانية و تدافع عنها" [1]

فالخطاب الباوماني إن صح القول يروم لإعادة قراءة مفهوم الإنسان و إعادة مدلولاته التي جُرّدت منه لتكون بذلك حياة الانسانية غاية و ليست وسيلة، و منه فهو يندد بقيم مشتركة للإنسانية، و منه فإنه يشير إلى ضرورة العودة للقيم الدينية كي يكون هنالك ضمير يؤدي إلى الشعور بالذنب عند فعل ما هو لا أخلاقي .

و في ذلك فإن الانسانية فقدت المعنى يوم أن أعلنت العلاقة بين الله و الإنسان كما يقول فيورباخ Feuerbach حاصلها الصفر، و بالتالي لا سبيل لرد مكانة الإنسان إلّا بالعود للمقدس الى الفضاء العام .

[1] زيجمونت باومان، الحب السائل، مصدر سابق، ص 122.

2- رؤية نقدية لنظرية السيولة عند باومان

2-1-مشروع باومان في ميزان النقد

على الرغم من أن زيجمونت باومان هو من بين أفضل علماء الاجتماع الأجانب الذين عرفت كتاباتهم انتشارا و رواجا في العالم العربي، الا أنه لم يلق الكثير من التعليقات أو الأعمال التمهيدية التي تقدمه للقراء في الجزائر ومع ذلك عالم الاجتماع الإنجليزي هذا والذي هو من اصل بولندي والمولود عام 1925 لا يتوقف عن نشر كتاب تلو الأخر، والذي نجد الكثير من علماء الاجتماع والفلاسفة والصحفيين أصبحوا يوظفونه لفهم الحداثة التي تزداد صعوبة تعريفها ، وقد اصبحت الفكرة المركزية التي قال بها ونعني بذلك فكرة " الحداثة السائلة " مفتاحا رئيسا لفك رموز أسرارها. يمكننا أن نلوم باومان على فقر جهازه المفاهيمي، لأنه ظهر مفهومان في جميع أنحاء عمله، يقطعانه ويشكلانه فهما بالفعل مفهوم الحرية و الأمن، مفهومان كان ألكسيس دوتوكفيل قد وظفهما في كتابه "الديمقراطية في أمريكا" ، حيث يتناول علم السياسة الخاصة بدوتوكفيل الحرية كما مورست في مجتمع موجود بالفعل ، هو هذا المجتمع الأمريكي "[1]

"و بالنسبة لتوكفيل الحقوق مشتقة من الفضيلة؛ فالفضيلة موجودة في العالم السياسي ، ستشجع تلك الفضيلة الفرد على المخاطرة بأمنه للدفاع عن الحرية "[2] و لكن المبدأ الديمقراطي – إن لم يهذب و يوجه– "يميل إلى السير في اتجاه نظم إستبدادية أقسى من أي نظام استبدادي قاساه الجنس البشري من قبل : إما إستبداد الكل على الكل هذا هو التناقض الكامن في الديمقراطية "[3] و مع ذلك فمن خلال مفهومي الحرية والأمن الغامضان نسبيا بدأ

[1]– مجاج خليل، جد روان : **الانسان السائل** : نحو إنطولوجيا رقمية سائلة عند زيجمونت باومان، مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية ص 02.

[2]– المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[3]– إبستاين جوزيف، ألكسي دوتوكفيل: **المرشد إلى الديمقراطية**، القاهرة، كلمات عربية للترجمة والنشر، 2010، ص 39.

باومان نقده للمجتمعات الشمولية، والحداثة وما بعد الحداثة والمجتمعات ذات الهشاشة المنهجية والمعروفة باسم المجتمعات" السائلة "، أي الموضوعات السوسيولوجة ذات ابعاد وامتدادات مقلقة، سواء في نطاقها ومداها أو في تعدد معاني دلالاتها ، يتضاعف هذا الانزعاج من خلال حقيقة أنه لا يمكننا أن نمنح مكانة محددة لعالم الاجتماع البولندي فهو ليس كاتب مقالات و لا منظر ولا حتى رجل ميدان بل هو نوع من "المشاهد الملتزم" لنصف القرن الماضي، وهو مفكر انتقائي ، يصنع مشروعه من كل" الإنتقادات الإجتماعية "وكل الأمراض التي عرفها نصف قرن، يجب الاعتراف بتلك النجاحات المشرفة في المشهد الاجتماعي المعاصر قد يرى البعض وهذا علامة على إنتهازية باومان ، والتي يبدو أنها تختمر أكثر فأكثر في البصمات النظرية وظواهر الحداثة المعاصرة غامض وانتقائي وانتهازي هذه هي تقريبا السمة الأكثر مكروهية في المرحلة الحالية لإعادة الطابع التجريبي لعلم الاجتماع لكن هذه السمات المزعجة تنقلب بسهولة ضد أولئك الذين يرغبون في محاكمته بشكل متسرع ،من المؤكد أن جهاز باومان المفاهيمي جد فقير، إن القول بأن المنتجعات الشمولية هي انبثاق نموذجي للحداثة من خلال المبالغة في تقديم الأمن على الحرية، بينما على العكس من ذلك ، فإن المجتمع ما بعد حداثي يبالغ في تقديم الحرية على حساب الأمن، قد يبدو كاريكاتوريا، لأنه من الواضح أنه تم العثور على هذا المخطط نفسه بالفعل عند توكفيل للتمييز بين المجتمعات الديمقراطية ومجتمعات الأنظمة القديمة ، ولعل ذلك يعود إلى أن توكفيل" وجد أن التدفق والحركة والسريان هي السمات الغالبة في جميع أنحاء الولايات المتحدة "[1] هي فكرة تحيل إلى السيولة عند باومان، ولأن الغموض الفني إلى حد ما لهذه المفاهيم يسمح لنا بقول كل شيء ، لكن هذا دون الأخذ في الاعتبار فترة

[1]– المرجع نفسه ، ص 35.

المراقبة الطويلة بشكل خاص والتحدث أو العناد الذي يقوم به باومان بإجراء مثل هذه الشخصيات ، مدة طويلة يمكننا تقسيمها إلى أربع مراحل للتأمل والتفكير.

بدأ كل شيء بالنسبة له بنقد الشمولية، نقد متفق عليه ، سيقال اليوم التركيز والتشديد على تضخم الأمن الذي يجعل من الممكن وضع البيروقراطية . و معسكرات الإبادة على نفس المستوى، في الثمانينات ، تتبع ذلك تفكير طويل إلى حد ما في مفهوم التناقض والازدواجية .

لم يعد باومان يفكر في هذين المفهومين بطريقة حصرية وساذجة فالكثير من الأمن يضر بالحرية والعكس صحيح ، ولكنه يكشف في نفس الوقت كل من أمراض الحرية والحاجة الى الأمن (على سبيل المثال في عدم الاستقرار)" ولا يفتقد المجتمع الحديث أنه من الممكن أن يكون آمنا بدون الأخذ بمقاييس لحراسة أمة عن وعي وترو (...) يكون سبب المنع هدف الارادة إذا كان هناك سبب للاعتقاد أن الإختيار المعين أو المحدد قد يجعل الناس يتصرفون بطريقة تضاد السلوك المطلوب لاستقرار النظام الإجتماعي وثباته، إن هذا هو التضاد أو التناقض بين التبعية والاستقلال ، بين الضبط و الانظباط الذاتي، بين التنظيم و الحرية" [1]

إنه ضمن هذا السياق يكتشف ظاهرة الاستهلاك الجماهيري ، ومن خلاله يكتشف حرية مستلبة بشكل غريب، لأن حرية المستهلك ليست أكثر من إيديولوجية الاختيار الحر من خلال نظام محدد بشكل ضيق وقيود ضمنية هذه المرحلة الثالثة هي بطريقة ما إختبار لمفهومية الرئيسين، مدركين في تناقضهما . لكن في المرحلة الرابعة، التي تجاوز فيها بومان السبعينيات من عمره، أظهر تماما موهبته خبيرا ومتخصصا في التشخيص و للأزمة الحاضرة، كما يقول الألمان ولي إستعارة مادية ونقدية (مرتبطةبالنقود) على حد سواء ،

[1]– زيجمونت باومان: **الحرية السائلة** ، مصدر سابق ، ص 28.

تقودنا إلى عالم من العلاقات المبرمجة مسبقا، حيث يتم التكييف والتوفيق بين الحرية والأمن وفقا للقيود النظامية مع الحفاظ على الأوهام التي تحملها بهذه المفاهيم تاريخيا.

إذا كانت الحداثة وفقا لنيكولاس لوهمان، (Luhmann Niklas) تخضع لعملية تمييز وظيفي،" فالنظرية تعالج تمايز نسق الفعل وتبعات التمايز المستمر دائما وتتوافق بلاريب مع تصورات الدوركامية حول تقسيم العمل أو مع تقليد علم الاجتماع عموما الذي وصف المجتمع الحديث بالمجتمع المتمايز "[1] فإن الجانب الأخر من هذا التكاثر للأنظمة الفرعية المجهزة بوسائطها الخاصة هو عملية تمايز يعطينا بومان صورة بليغة منها.

سواء تعلق الأمر بالحب أو الحياة ، أو الحداثة، أو الزمن، أوالخوف فإن سيولتها لا تدل، وبالتالي إمكانات الصراع ، فإنه في الوقت الحالي لم تعد تظهر اليوم سوى مجالات اللامبالاة الأخلاقية ،السياسية أو الثقافية، و اللاكثارات أو إضفاء طابع اللامبالاة.

لطالما نظر باومان الى علم الاجتماع باعتباره مشروعاً لتحرير الأفراد " حرب ضد عملية شمولية الوجود ومن أجل إستقلالية الإنسان"[2] باومان لا يهتم بالملصقات التي غالبا ما تحل محل التأمل من خلال مجرد التسمية البسيطة، إنه قاص وليس منظرًا هذا النوع يمكن أن يزعج عالم الاجتماع المحترف، لكن يبدو لي أن هناك مكان ضروريا حتى للمسافرين بلا حدود مثله ، نتذكر أنه حتى في البانوراما الفرنسية كان هناك جان بودريار الذي إستكشف بسعادة المجالات الأكثر تنوعا من التحليل النفسي إلى علم الأحياء، ومن منوغرافيا الأشياء إلى التصوير الفوتوغرافي ، إلى حد كبير أرعب منتقديه وهذا يعني أن الحدود يسهل إختراقها في النوع الأدبي لعلم الاجتماع،وأنه بدلاً من عزلها بالجيران وفصلها عن بعضها البعض ، يجب أن تظل مفتوحة مع خطر كسر الأبواب المفتوحة، وخلط الأنواع والقيام بـ " تأملات غير شرعية. إن أي شخص يعرف شرائح وقيود هذا النوع من الممارسة

[1]– زيجمونت باومان : **المراقبة السائلة** ، مصدر سابق ص 49.

[2]– المصدر نفسه، ص 53.

الأكاديمية سيجد أن مهمتها تبدو مغامرة حقيقية، إن محاولة التعامل مع هذا الكم الهائل من المنشورات ونظرية مثل نظريته حول " السيولة" تجعل من الصعب مقاربتها دون الوقوع في التفاهة الصحافاتية تحديا حقيقيا، لكننا سنكون رغم صعوبة المحاولة قد نجحنا في هذا الرهان لو تمكننا بدون فخر أن تعتبر محاولتنا هاته مفيدة للغاية التي نقترحها هنا ونوصي بها لأي شخص يرغب في المغامرة أكثر في منعرجات العالم السائل لزيجمونت باومان.

خاتمة

خاتمة:

إنطلاقاً مما تقدم فإن هذا البحث أراد أن يقدم قراءة عميقة للواقع المعاصر ويلقي الضوء على طبيعة الحياة في واقعنا الحاضر، بغية الوصول إلى تفسير أفضل لحالة التغير الشديد والمستمر في كل شيء، وهنا قدم لنا " زيجمونت باومان " رؤيته المتمثلة في السيولة بإعتبارها النموذج المهيمن على الحياة اليومية في الوقت الحاضر لكي يكون أداة شاملة لتفسير ما آل إليه الواقع الراهن، وفهم النسخة الثانية من الحداثة أو الحداثة في طورها الثاني، التي تميزت بالسرعة والسيرورة الدائمة، نتيجة سيادة النموذج الإستهلاكي وهيمنة النزعة النيوليبرالية، ناهيك عن طغيان النزعة الفردية على المجتمع المعاصر.

ولهذا كان نموذج السيولة كأصدق تعبير عن الصورة الراهنة التي لاتحتفض بالإلتزامات او الإستراتيجيات طويلة المدة، بل تعنى بالإستراتيجيات قصيرة المدى والمرهونة بإشعار آخر، وهذا يعني أن التغير الدائم والسريع يفتقد وجة محددة أو نقطة ثابتة نهائية ومن ثم فقد حلت المرونة محل الصلابة والسرعة محل الثبات بوصفها الوضع المثالي للتعامل مع مرور الأشياء.

وهكذا جعلت السيولة كل شيء في حال مخاض دائم وثورة متجددة لا تتحقق مطلقاً.

مما يستلزم على إنسان الحداثة السائلة أن يتعلم فن التخلص من الأشياء بدلا من إمتلاكها بغية الإلتحاق بالمستجدات المتسارعة وبالتالي ضمان عدم إستعباد الأفراد في سباق السرعة او الإلتقاء في هاته المهزلات وحتى لا يتحقق هذا الأمر يتوجب على هذا الإنسان ان يكون يقضاً طوال الوقت، وأن يتوقع كل شيء يمكن أن يحدث ولا شيء يمكن فعله في ثقة وإطمئنان مما يجعله يعيش حالة خوف مزمن، وقلق دائم إزاء ماهو قادم.

فالسيولة التي غزت العالم المعاصر ناهيك عن الحياة النفسية جعلت الفرد يتحول من كائن منتج إلى كائن مستهلك يلهث وراء السلعة واللحاق بركب الموضة وإتباع أحدث الصيحات العالمية وإقتناء أفضل المنتجات الآلية، الأمر الذي جعل الحياة المعاصرة سلسلة

من البدايات الجديدة مكتوب عليها عبارة " حتى إشعار آخر " وهذا يعني أن المجتمع المعاصر المتمركز على الإستهلاك لا يعرف إلا السرعة، الزوال، الإسراف، التبذير.

مما يؤدي الى إرتفاع معدل النفايات في المجتمع المعاصر، نتيجة وقوع هذا المجتمع تحت تأثير سلطة إغواء السوق وإغراق أفراده بالمظاهر السطحية الخادعة والزائفة التي لا تدوم إلا لفترة قصيرة، المهم هنا تحقيق السعادة الشخصية والوصول الى تحقيق الإشباع .

هذا ما إنعكس سلباً على سوسيولوجية الإنسان المعاصر أين خضعت الذات للتسويق وإعادة إنتاجها بحسب متطلبات السوق، وهنا تفقد الذات كل عناصر الثبات والصلابة والإلتزام، لكونها لا تتوافق مع منطق المتلازمة الإستهلاكية، وبهذا يكون أصدق نموذج معبر عن إنسان الحداثة السائلة كما تصوره باومان هو نموذج الحرباء في تلونها او باراديغم " برميثيوس " التي لها القدرة القائمة على التحول كما تشاء، وعلى هيئات مختلفة.

إذا إنها السيولة التي ساهمت في تغيير مقومات العيش الإنساني وأعادت تعريف مفاهيم كثيرة ولعل أهم المفاهيم التي توقفنا عندها الحداثة، الحياة، الخوف، المراقبة، الثقافة، الحب، الشر...

فإذا كانت الحداثة في نسختها الأولى –الحداثة الصلبة– قد سعت إلى خلق نظام محكم ومستقر بفعل سيطرت الأداة البشرية والتي عملت بفعل التحديث الوسواسي القهري على إذابة كل النظم الراهنة التي يعلوها الصداء لتعلن في المقابل عن تأسيس نظم أكثر صلابة فإن الحداثة السائلة قد شهدت عنفاً سائلا شمل كل البنى وعمد على تفكيكها لصالح اللاعب الحر دون وجود نقطة ثابتة صلبة يقف عليها إنسان مابعد الحداثة.

وأمام هذا الوضع الذي يتسم بالسيولة الشاملة، والذي قاد العالم نحو مزيد من التشتت والتشضي فإن بوامان أبدى نقدا لاذعاً لهذا الوضع المتأزم ليؤكد في نهاية طرحه على إمكانية مراوغة موجة السيولة والتعايش معها كحتمية لازمة ومشروعة في الوقت الراهن، وفي نفس الوقت التفكير في مخارج يتجاوز من خلالها ظربات القدر ومنه إمكانية التصور عالم

إنساني مابعد السيولة تتلاقى فيه الذوات وتتحاور فيما بينها دون إلغاء او إقصاء الآخر لأن تأشيرة الدخول لهذا العالم تتمثل في إحترام الكرامة الإنسانية ورفض إهانتها.

لهذا فقد دعا الى سياسة حضارية إنسانية بالدرجة الأولى تعلي من شأن الإنسان وتحفظ كرامته وتضمن له فرص العيش الإنساني وفق قيم أخلاقية مسبوغة بخطاب المحبة والتآلف والتسامح وهذا الأمر يتوقف على الدور الذي تلعبه النخبة المثقفة اليوم في كل عالم مليء بالتناقضات وحافل بالمخاطر، فهي المسؤولة على عملية إصلاح المجتمع ومد جسور التواصل وتعزيز الحوارات بين الأفراد، الى جانب كونها تحمل مهمة المترجم بغية ترجمة الواقع من أجل ان يتمكن الأفراد من فهم عالم الحداثة السائلة وفهم تغيراتها ومنه الوصول إلى بناء عالم إنساني يرحب بإنسانية الإنسان .

وفي نهاية هذا البحث تبقى هناك إشكالات ينبغي طرحها :

هل يمكن أن تكون للسيولة تفسير بوماني مؤقت يصلح عنواناً لحاضرنا وينسحب على أحداث المستقبل؟

هل يمكن لتغير الأحداث والأوضاع الإنسانية أن يجعلنا نتحدث عن مابعد السيولة مثلا والتأسيس لمفهوم وباراديغم جديد ؟

قائمة المصادر والمراجع

1- المصادر:

أ- باللغة العربية

1) زيجمونت باومان : الأزمنة السائلة، العيش في عصر اللايقين، ترجمة حجاج أبوجير تقديم :الهبة رؤوف، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط (1) ، 2017.

2) زيجمونت باومان : الحداثة و الهولوكوست، تر حجاج ابو جبر، القاهرة ، صدارات للابحاث و النشر، ط1، 2014.

3) زيجمونت باومان : الحرية السائلة ، تر: فريال حسن خليفة ، مكتبة مدبولي ، القاهرة. ص 68.

4) زيجمونت باومان : الخوف السائل , تر حجاج أبوجبر , الشبكة العربية للأيحاث والنشر, 2018.

5) زيجمونت باومان قارئا لإيمانويل لفيناس، مجلة المقدمة للدراسات الانسانية والاجتماعية، المجلد 7، العدد 2 ، ديسمبر.

6) زيجمونت باومان و ليونيد اسدونسكيس : الشر السائل (العيش مع اللابديل)، الشبكة العربية الأبحاث والنشر، بيروت، لبنان ، ط 1 ، 2007 .

7) زيجمونت باومان وآخرون : قوة الكلمات – حوارات وأفكار ، تر: لطيفة الديملي دار الهدى للإعلام والثقافة والفنون، ط 1 ، 2017 .

8) زيجمونت باومان: الأخلاق في عصر الحداثة السائلة ترجمة : سعد البازغي ، بثينة إبراهيم ،أبوظبي للسياحة و الثقافة . ط1 ،2016.

9) زيجمونت باومان: الثقافة السائلة : ترجمة: حجاج أبو جبر، الشركة العربية للأبحاث والنشر ، ط1، بيروت،2018.

10)زيجمونت باومان: الحداثة والهولوكوست:ترجمة حجاج أبو جبر دنيا رمضان ، مدارات لأبحاث والنشر، القاهرة .

11)زيجمونت باومان: الحياة السائلة، تر حجاج أبو جبر ، الشبكة العربية للأبحاث والنشر ط1 ،بيروت، 2018.

12)زيجمونت باومان: الخوف السائل، تر : حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والترجمة ، بيروت، ط01 ، 2017.

13)زيجمونت باومان، الحياة السائلة، تر حجاج أبو جبر، بيروت الشبكة العربية، بيروت للأبحاث والترجمة، 2016.

14)زيجمونت باومان، كارلو برودلي: حالة الأزمنة، تر حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، لبنان، ط 1، 2019.

15)زيجونت باومان و آخرون : مستقبل النظرية الاجتماعية : تر : يسرى عبد الحميد رسلان، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة 2014 .

ب- المصادر باللغة الأجنبية:

1) Zygmunt Bauman : Intimations of postmodernity .

2) Zygmunt Bauman, Mortality Immortality and Life Strategies, Cambridge: Polity press, 1992.

3) Zygmunt Baumon: Intimations of Postmodernity , London , Routledge,(1992)

2- المراجع:

أ- باللغة العربية:

1) إبستاين جوزيف ، ألكسي دوتوكفيل : المرشد إلى الديمقراطية، القاهرة، كلمات عربية للترجمة والنشر، 2010 .

2) آلات تورين : نقد الحداثة، ترجمة : عبد السلام الطويل ، مراجعة محمد سبيلا، إفريقيا الشرق ،المغرب . 2010.

3) إيمانويل ليفيناس، الزمان والآخر، ترجمة جلال بدلة، دار معابر للنشر والتوزيع، دمشق، 2014.

4) بو الشعير عبد العزيز، النظام المعرفي بين الفكرين الإسلامي والغربي، منتدى المعارف : بيروت، ط1، 2014.

5) بول هوبر: نحو فهم للعولمة الثقافية، ترجمة طلعت الشايب، المركز القومي للترجمة، ط1، 2011.

6) توفيق الشريف: برغسون و فلسفة الحياة، المنشورات للانتاج و التوزيع، تونس،1993.

7) جان بودريار : المصنع و الإصطناع ،تر: جوزيف عبد الله ، مركز دراسات الوحدة العربية ،لبنان ،ط01 ،2008. .

8) جيل دولوز نيتشه و الفلسفة تر: أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط 1، 1993.

9) جيل دولوز، فليكس غثاري : ما هي الفلسفة، ترجمة مطاع ،صفدي، مركز الإنماء القومي، بيروت، لبنان، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، .

10) حجاج أبو جبر، المقاربة المجازية للحداثة الغربية، في كتابات عبد الوهاب المسيري و زيجمونت باومان ، ضمن كتاب جماعي (عبد الوهاب المسيري في عيون أصدقائه ونقاده)، دار الفكر، دمشق، سوريا ،ط1 .

11) سكوت جون: تر، محمود محمد حلمي، مراجعة جبور سمعان، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط2009،1.

12) عبد الرحمن بدوي: ربيع الفكر اليوناني، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط3، (دت).

13) عبد الرزاق بلعزوز : أزمة الحداثة ورهانات الخطاب الإسلامي ، منتدى المعارف، بيروت ط 1 ، 2012.

14) عبد الوهاب الميسري : دراسات معرفية للحداثة الغربية، مكتبة شروق الدولية، قاهرة ط 1 ، 2006.

15) عز الدين الخطابي : أسئلة الحداثة ورهاناتها في المجتمع والسياسة والتربية ، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط 01 ، 2009 .

16) فتحي التركي ورشيدة التركي : فلسفة الحداثة، مركز الانتماء القومي، بيروت، (د.ط)، 1992 .

17) فريدريك نيتشه: الفلسفة في العصر المأساوي الاغريقي، تر سهيل القش، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط2، 1983.

18) كمال بومنير: النظرية النقدية المدرسة فرانكفورت الى ألكسيل هونيث منشورات الاختلاف، الجزائر.

19) لحسن لحمادي: هيراقليطس (الحكيم الأفزي) بعيون نيتشه 25/06/2015 ، الحوار المتمدن.

20) مارتن هيدجر نداء الحقيقة ترجمة عبد القادر مكاوي، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1977.

21) مانويل ماريا ريكو :خطابات الحداثة ،تر: إدريس كثير، عز الدين الخطابي ، منشورات ما بعد الحداثة.

22) محمد الشيخ : فلسفة الحداثة في فكر المثقفين الهيكليين الكسندر كوجيف وإريك فايل، الشركة العربية للأبحاث والترجمة ،لبنان، ط01 ،2008.

23) محمد الشيكر: هيدجر وسؤال الحداثة، دار إفريقيا الشرق ، المغرب 2006.

24) محمد جديدي : الحداثة وما بعد الحداثة في فلسفة رتشارد روزتي ، منشورات الإختلاف، ط 01 ،2008.

25) محمد سبيلا : الحداثة وما بعد الحداثة، دار توبقال ، المغرب ، ط 02 ، 2007.

26) محمد محمود أحمد: أعداء الحداثة، مركز فكر معاصر، السعودية، ط 01، 1434 هـ.

27) محمد همام: الحداثة والخوف وكورونا، مركز النهوض للبحث والدراسات، جامعة إبن زهر، المغرب، 2020.

28) هيراقليطس: شذرات هيراقليطس تر ، أحمد فؤاد الأهواني، فجر الفلسفة ليونانية قبل سقراط، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت ط1.

29) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، 1936.

باللغة بالأجنبية:

1) Dennis Smith : Zygmunt Bauman : prophet of postmodernity , Polity Press (1999) .

2) Morin , e . l'ancienne et la nouvelle transdisciplinarité , collection points , 1er edition , paris , 1982.

3) Peter Beilharz, Zygmunt Bauman: Dialectic of Modernity, Cambridge: Polity press , 2000.

4) Pierre-Antoine Chardel, Zygmunt Bauman Les illusions perdues de la Modernité. CNRS Editions, Paris, 2013.

3- المجلات والمقالات والملتقيات:

1) جدراوي عفاف، عبد الغاني بوالسكك ، الأخلاق كأفق لعالم الحداثة السائلة، زيجمونت باومنت قارئا لمانويل ليفيناس، مجلة النهضة للدراسات الإنسانية والإجتماعية، مجلد3، ع 02، ديسمبر 2022.

2) شراد فوزية: من الحداثة الصلبة الى الحداثة السائلة. مكامن التأزم وسبل الإنفراج –من منظور باومان : سلسلة أبحاث المؤثر السنوي الدولي ، المجلد 03 . العدد 05، 2018.

3) فاروق بن خرف الله ، محمد غازي، نظرية التقاطع المعرفي في علم الإجتماع، زيغمونت باومان أنموذجا، دورية نماء لعلوم الوحي و الدراسات الإنسانية، العدد 13، ربيع 2021 م.

4) مجاج خليل، جد روان : الانسان السائل : نحو إنطولوجيا رقمية سائلة عند زيجمونت باومان، مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية.

5) نهى محمد أحمد السيد : سوسيولوجيا ما بعد الحداثة –زيمونت باومان–، مجلة البحث العلمي في الآداب والعلوم الإجتماعية والإنسانية، ج4، العدد 21، 2020.

4- الرسائل الجامعية:

1) صاري رشيدة، اللوجوس من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة المعاصرة. هيراقليطس، هيدغر أنموذجين، رسالة دكتوراه جامعة وهران 2، 2015.

5- الموسوعات والمعاجم والقواميس:

1) أحمد المنصور: معجم مصطلحات الفيزياء، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق 2015.

2) احمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصر، عالم الكتب، القاهرة، ط1 2008.

3) جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ج1 ،دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1982.

6- المواقع الإلكترونية:

أ- باللغة العربية:

1) أسامة ممدوح عبد الرزاق مصطفى شرف: السيولة الفائقة أغرب حالات المادة، مجالسنا مجالس التعليم العصري، 17/04/2021، www.majalisna.com .

2) تاريخ الدخول 18/05/2022 وقد جسدت واقعة الهولوكوست في فليم The pianiste الذي سرد وضع اليهود في بولندا في ح.ع ثانية

3) العلوي رشيد https:/aawsat.com/home/article .

4) يسرى وجيه السعيد : مصطلح السيولة وارتداداته عند باومان – مؤسسة مؤمنون بلاحدود، 14 ديسمبر 2016mominoun.com .

ب- باللغة الأجنبية:

1. Fronceculture . Fr . Nous vivons dans une société liquide , linstitut Français De la Mode ,la date : 25/04/2020 . https://www.franceculture.Fr/conferences/nous-Vivons-dans-une-societe.liquide.

2. https://encyclopedig.ushmm.org/content/ar/article/introduction-The-holocaust#..0

3. https://www.theguardian.com/education/2017/jan/15/Zygmunt-bauman-obituary.

4. theguardian , Zygmunt Bauman obituary . Mark Davis and tom compbell la date : 25/04/2020.

5. Tony Blackshaw, Zygmunt Buaman, London/New York: Routledge, 2005.

6. www.m.ahewar.org

الفهرس

فهرس الموضوعات

شكر و عرفان .....

إهداء .....

إهداء .....

المقدمة .....أ

الفصل الأول : مصطلح السيولة عند زيجمونت باومان

1- الخلفية الفكرية لباومان 8

1) حياته و أهم مؤلفاته.....8

أ. حياته.....7

ب. أهم مؤلفاته.....8

2) فلسفته 12

II. السيولة إشكالية المفهوم و هويته 17

1) الجذور التارخية لمصطلح السيولة.....17

2) مفهوم السيولة 23

الفصل الثاني: تمظهرات السيولة في فلسفة باومان(الحداثة السائلة أنموذجا)

I. الحداثة (تضارب المفاهيم) 28

1) مفهوم الحداثة الصلبة.....29

أ. تفعيل مركزية الإنسان.....27

ب. مركزية النخطيط و التنظيم.....28
ج. رسم حدود الدول و ظبطها.....28
د. تكريس مبادئ الليبرالية و إرساء أسس الرأسمالية الثقيلة.....28
2) مفهوم الحداثة السائلة.....32
II. أزمة الحداثة وإنبثاق الحداثة السائلة.....35
1) مقومات الحداثة الغربية (أو الحداثة و مقوّماتها الكبرى).....35
أ. الذاتية..... 33
ب. العقلانية..... 35
ج. الحرية..... 36
2) نقد مقوّمات الحداثة الغربية.....41
أ. نقد العقلانية..... 41
ب. نقد الذاتية..... 42
ج. نقد الحرية..... 44
الفصل الثالث: القيمة الايستمولوجية لفكرة السيولة عند باومان
I. مقترحات لمفهوم السيولة عند باومان.....51
1) في إسقاطات السيولة عند باومان.....52
أ. في الحياة السائلة..... 50
ب. في العنف السائل..... 51
ج. في الخوف السائل..... 53
د. في الثقافة السائلة..... 55
هـ. في الأخلاق السائلة..... 60

2) المقدس كخلاص من موجة السيولة 65

II. رؤية نقدية لنظرية السيولة عند باومان 71

1) مشروع باومان في ميزان النقد 71

خاتمة 76